

# **حكايات الغريب**

أجزاء من سيرة  
عبد الله القلعاوى

〈 ١٧٥ 〉

---

## « تقرير عام عن الأعمال القتالية للمجموعة السابعة »

.. من المعروف أن جميع من تحدثوا عن هذه المجموعة أطلقوا عليها اسم « مجموعة القلعاوي » بل إن المتخصصين ، ومنهم بعض قادة الوحدات والقطاعات التي عملت من خلالها المجموعة ، وطيارو الميلوكيتر الذين اشتركوا في نقل الرجال ، كلهم لم يستخدموا الاسم الرسمي عند حديثهم عنها ، لهذا فإننا نميل إلى الأخذ بتلك التسمية التلقائية التي رددوها المواطنين أيضا .. فأعمال المجموعة لا تقتصر على نوع خاص بينهم - بغض النظر عن الاسم الرسمي المستعمل في المكاتب السرية وخطابات الشؤون الإدارية - وكما تفيد مصادرنا في الأرض المحتلة أن العدو أطلق عليها اسم رمزي وهو « الفرقة الخاصة » ومن الثابت أن معلوماته حول المجموعة مضطربة جدا ، لم ترق إلى مستوى اليقين من وجهة نظره ، ويرجع هذا إلى أسباب عديدة ليس هذا مجال تفصيلها ، لقد اتسمت الأعمال القتالية بلامع خاصية وحق نستطيع الإمام بطبعتها لا بد من إشارة أولية إلى مسرح العمليات .

---

## ١ - نطاق العمليات

جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كل وحدة مقاتلة بمهمة معينة يحدد لها إطار معين يضم أهدافاً منتظمة للتعامل معها ، ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءاً من السرية إلى الفرقة إلى الجيش ، لكننا لا نجد هذا منطبقاً على مهام مجموعة القلعاوي ، يبدو قولنا واضحاً من الخريطة الضخمة لمصر والبلاد المحيطة بها والتي تحتل - حتى الآن - جداراً بأكمله من غرفة القلعاوى ، صنعت هذه الخريطة من الجبس البارز الملون ، حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق أسماء بعض المناطق بسيناء ، كل دبوس يعني عملية تمت ضد هدف ، توجد مجموعة أخرى من الدبابيس الخضراء وهذه تعني أهدافاً سوف تهاجم ، من الخريطة يتضح أن مسرح عمليات المجموعة سيناء كلها ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً من أبرز الخبراء العسكريين الذين زاروا البلاد بعد الحرب وتوفروا لديهم بعض المعلومات أبدوا دهشة وإعجاباً بالمجموعة ، ونورد فيما يلي تلك السطور التي كتبها الجنرال هان كريستيان ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية والعسكرية ، الذي زارنا خلال الفترة القصيرة الماضية .

« .. يبدو واضحاً أن تلك المجموعة من الرجال قد خلقت لنفسها قوانينها الخاصة ، إذ حطمت الكثير من القواعد العسكرية المتعارف

---

عليها ، وللأسف غير متاح الآن الاطلاع على ظروف تكوينها وعملها .. » .

ونقول إن مجموعة القلعاوي هاجت أهدافاً تقع في رأس محمد بأقصى الجنوب من سيناء . وأهدافاً أخرى في بالوظة ورمانة شمال شبه الجزيرة ، في لسان التمساح ورأس العش ، وسدر ، وإيلات ، وعلى امتداد منطقة الخليج ويقول الذين عملوا مع القلعاوي إن الخليج لعبته ، وتتردد أقوال لم نذكرها كحقائق مفروغ منها — لأسباب عديدة — أنه قام بعديد من المهام في مناطق مختلفة من العالم ضد العدو الصهيوني ، ليست بالضرورة أعمال قتال ، إنما تضم مهام استطلاع وتعقب بعض العناصر المعادية ويوجد عدد من البرقيات لدى أسرته ووصلت في الأسابيع التالية ليوم الجمعة ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، من فدائيين فلسطينيين ، ومقاتلين من جنسيات مختلفة ، وقع بعضهم بالأحرف الأولى ، وإذا ما أتيح للمهتمين بسيرته مقابلة قادة الوحدات الذين واجهوا العدو من رأس العش شمالاً حتى واقعنا المطلة على البحر الأحمر ، فإنهم سيسمعون قولاً يتردد كثيراً « لقد مر القلعاوي من هنا » ، أي أنه يستخدم المنطقة التي يرابط فيها التشكيل كقاعدة انطلاق ، سيجدون أنه عبر في توقيتات مختلفة فمن نقطة معينة تقع في مواجهة لسان بحيرة التمساح عبر مع الرجال أربع مرات خلال فترة زمنية قصيرة ، عبر في الصباح ، في الغروب ، في الظهيرة ، في منتصف الليل ، أول ضوء وفي

---

---

---

آخر ضوء ، ونظراً لأهمية شهادة هؤلاء القادة نورد فيها يلي بعضاً مما قالوه ، ومعظم هذه الشهادات جمعها رجال القلعاوي على أشرطة كاسيت صغيرة بهدف الاحتفاظ بها كوثائق .

\* \* \*

يتحدث العقيد أركان حرب (م . أ . ع) قائد تشكيل مقاتل في منطقة البحر الأخر .

... أتذكر هذا الوقت بدقة فالثوانى والدقائق ذات أهمية خاصة ، بالضبط الساعة الثانية صباحاً وخمس دقائق عندما وصل القلعاوى ورجاله ، الليل عندنا مختلف لا يوجد أى مصدر ضوء صناعى على بعد عشرات الكيلومترات ، لا يسمى إلا النجوم وضئوها الخافت وعددها الكبير . كل شيء يعمق صوت الليل حتى صوت البحر الغامض عندما يصطدم بالشاطئ الصخرى ويرتد عنه ، يحوى تحذيراً . هنا يكتسب الصوت الأدمعى العادى أبعاداً ودلالات ، إن سمع فهذا يثير انتباه الكمان والدوريات المتنقلة وجندو الملاحظة لهذا .. (فترة صمت) .. أوشك الأن أن استعيد الأصوات المحدودة الخافتة التي صاحبت مجىء عبد الله عدد الرجال أكثر مما قدرت ، وقف صامتاً ، لم يصدر أمراً بصوت عالٍ ، يتحرك كل منهم وكأن ثمة إتصال خفى يشدهم

إليه ، كأنهم يقرأون في وقته ، في استدارته ، في عقد يديه أمام صدره تعليمة أو أوامر معينة ، أذكر وقع خطواتهم الخافتة ، يمرون أمامي ، لا تبدو منهم تفاصيل إلا للحظات مارقة . يتوجهون إلى القوارب الراقدة في البحر والظلام ، كأنهم يتوجهون لقتال الليل نفسه ، يدخلون فيه . سمعت الكثير عن القلعاوى ، لم أره ، هو أقدم مني باربع دفعات كما أن مجال الخدمة الخاصة جعلني لا أثقني به . لست أنا أبداً معظم زملائي حتى زملاء دفعتي ، إذا ذكر أحدهنا أنه رأه فيقترن هذا بعمل قتالي ، إذا رأه أحدهنا فيتبرد إلى ذهنه خاطر لا يمكن نفيه .. الله ، إن القلعاوى ما زال يعيش ، في هذه الليلة وقف على مسافة متر واحد من القلعاوى ، لم أسأله عن المهمة التي سيقوم بها الآن لأن من طبيعة أعماله السرية ، أو الطرق التي يسلكها في الناحية الأخرى ، مهمته محدودة تعطية الرجال أثناء الإبحار وتأمين عودتهم .. ( صمت ) أرى القلعاوى وكأنه أمامي ، عيناه تنظران في خط لا يجيد ، وجهه كان متطلعاً إلى أعلى باستمرار حتى لو أطرق ، يبدو كأنه يقف دائمًا في وضع صفا ، حذاؤه جلدي ، ثيابه مشدودة إلى جسده ، سترته مليئة بمحبوب عديدة . هو مصمم هذه الشياب ، تتسع لأكبر عدد من القنابل والذخيرة وأدوات القتال عندما اتجه إلى نقطة إلإبحار لاحظت شاباً قصيراً خفيف الحركة يتبعه . صوت المجاديف . هدوء السواد لا يكشف اتجاههم ، ثقل الليل ، لا فرق بين

---

---

المياه والأرض . المادة واحدة فيها عدا رائحة البحر . أصغيت طربلا ،  
إبحارهم أضاف عمقا للظلم والليل . هناك فوق نقطة معينة ، في اتجاه  
محدد .. يتحرك القلعاوى ..

\* \* \*

نص محادثة لاسلكية جرت بين القلعاوى .. وأحد الضباط الكبار  
الذى وقف يتابع عملية للمجموعة من فوق الشاطئ الغربى للخليج ، تم  
تسجيل هذه المحادثة فى ديسمبر ٦٩ .. فكت رموزها فيما بعد .

القلعاوى : مستمر ..

الضابط : نشاط الطيران فوق المنطقة .. أفضل التقدم نحو مكان  
الإبحار .

القلعاوى : استطلاع الهدف ضروري ..

الضابط : انهى العملية .

القلعاوى : ( صمت ) .

الضابط : عد يا عبد الله .. عبد الله .. سامح وليل فى انتظارك ..  
( القلعاوى يغلق الجهاز .. )

\* \* \*

يتحدث المقاتل (ل) أحد رجال المجموعة :

بعد أن اختارنى للعمل معه . وفي أول لقاء به . قال إن هذه المجموعة سوف تحارب عدو مصر في كل مكان . وتلاحقه وتضرره ، الجميع هنا يقضون أيامهم إما استعدادا للقتال أو في حالة قتال فعل . كل منهم جاء إلى الحياة ليقتل . طلب مني أن أحدهم عن نفسي . وفي البداية ظننت أنه يريد الإمام بالمعارك التي خضتها لكنه رفع ملفا أزرق ، قال إنه يضم أكثر مما سأقول ، فهمت ، حدثته عن والدى . عن الخطابات التي أرسلها كل شهر إلى عيالى . ما اشتريته لهم في بداية أجازاتى ، حدثته عن انتظار أهلى عند الجسر ، عن رائحة الغيطان الليلية ورائحة الصحراء ، لون المساء فوق قريتنا الأصوات الليلية في الجبل ، مرور الهواء بين شقوق الصخر وتدحرج الحصى وما يتركه في النفس عواء ذهب ضال أو باحث عن فريسة ، تكلمت عن الساقية القديمة التي ركبتها طفلا ، ظننت عجلتها ضخمة جدا ، والبشر بلا نهاية ، بعد سنين كلما مررت بها أدهش وأنا أرى بثر طفولتى السحيقة مجرد حفرة ، حدثته عن رائحة الفول الأخضر وامتداد الكوب حتى الحافة بالماء وصرير عجلات الترام عند المنحدرات وحدود المدينة وأول امرأة نراها بعد عودتنا تمشي في الطرق الآمنة ، الرجال فوق أسطح القطارات . وعشرات الصبية يركبون جرارا زراعيا . فلاحت حملن قصصات المؤنة وذهبن لبناء قاعدة صواريخ . صوت عجوز منها

تقول ، « ما هو ده جيحوش البلاعنَا » ، جندي مجلس القرقضاء فوق رمال الصحراء ، نفس جلسة أبي بجوار المصرف المجاور للزراعية ، لم يستوقفني ، لم يستفسر . لم يطلب إيضاحا ، لا . . . لم يصمت ، أذكر الموقف الآن فأذكر أنه بادلى الحديث مع أنه لم يلفظ حرفًا . تجعيدتان عند ركنى فمه كأنه أصغى إلى خبر مؤثر . أو حزن قديم أو تساؤل محير أو حنين إلى سقط رأسه . يقولون إن هاتين التجعيدتين ظهرتا بعد موت عاصم ، زميل دراسته . زميل الكلية ، مؤسس المجموعة معه وساعدته الآخرين في كافة العمليات التي تمت حتى ذهابه في مياه الخليج . سمع صوت سقوط جسم في الماء ولم يسمع أحد صرخة أو استغاثة ، منذ هذا الحين اختفى عاصم ، كثيراً ما لمحته يقف عاقداً يديه ، أراه من بعد ولا أترين ملامح وجهه . لكنني أثق من وجود هذا البحث في عينيه ، ربما يستطيع أن أتخيله تظاهر بعد ، يستمر واقفاً لفترة ثم يستدير فجأة ، لا أستطيع أن أتخيله يمشي متسلكاً في ميدان مزدحم ، يسافر إلى مصيف ، يدخن سيجارة أو نرجيلة يجهى . كما عرفنا أن القلعاء لم يحصل على أي أجازة ميدانية منذ عام ١٩٦٧ . مع أنه ينظم أجزاءانا بنفسه ، وينبع من يسافر بعيداً يومين إضافيين حتى تكفى مدة السفر ، أقول الآن إنني عندما أفارق المجموعة متوجهها إلى بلدتي أشعر بخجل لأنني أسافر وأتركه . في أيام الجمعة يجيء مع سامح وليل ، تعرفها ويعرفان كلاً منا باسمه ، بماذا يوحى لنا سامح ؟

أراه دائمًا كأنه رجل كبير صغير الحجم ، عندما جلسنا في صالة البيت . أضم شفتي بأسنان جاء ممسكاً عدداً من النياشين والأتواء وراح يقدمها إلى الحاضرين متتحدثاً عن المناسبة المرتبطة بمنح كل منها إلى القلعاوي الآن يتحدث كل منا إليها بالטלيفون مستفسراً عنها إذا احتاجا إلى شيء ما ، أدير قرص التليفون متوقعاً صوت القلعاوي وعندما يرد سامح أو ليلى أحاول أن أبدو ظريفاً ، يقولون إن القلعاوي يتصل بها قبل خروجه إلى العدو لكن لم يره أحد يحدثها . عندما يغلق الباب تبدو شظايا الضوء من خلال المساحات البيضاء التي يهت من الطلاء الأزرق ، يطلب شايا ، دخلت عليه مرة . رأيته منبطحاً فوق الأرض . حوله خرائط ، كتب مفتوحة لم تغلق ، مساطر أقلام ملونة ، أدوات هندسية ، شريط طويل من صور فوتografية متعاقبة ربما التقاطها بنفسه إذ إنه قام بتصوير بعض أهداف العدو بمفرده . أنا لم أصحبه مع أن مهمق القتالية تغطيته خلال الهجوم في الليل . في الصباح . في العصر . بمجرد انتهاءه من وضع خطة العمل . تصبح مجرد أوراق جاهزة للتصديق عليها من قبل المستويات الأعلى . نراه يخرج من المكتب ، يتحدث إلى بعضنا ، يصعد التبة الرملية بسرعة ، يقود دراجة بخارية يلف بها أرض التدريب مرات ، ومرات . يدرك الرجال أن ثمة خطة اكتملت . لكل منهم دور محمد الآن . إن القلعاوي يبدو مرحباً . خفيفاً . ربما صاح على أحد الرجال بدون آية مقدمات يسأله عن

أحواله ، ! عن صحة أولاده ، مصاريف المدارس ، ربما استفسر عن أحوال أم مريضة بالسكر أو أب يعاني متلازمة الشيخوخة . عن تفاصيل مشروع زواج تبعي خطواته بسبب عدم الحصول على مسكن أو متاعب مع أهل العروس . في البداية يفاجأ المنضم إلى المجموعة حديثاً بأسلوب القلعاوي المفاجيء . المبالغت تماماً كهجومه أو ظهوره فجأة وراء خطوط العدو ، اعتدناه ، يعرف كل شيء عنا ، أسماء أطفالنا ، ! عدد الأقساط التي يسددها كل منا ، بل قيل إنه يحدد دور كل منا طبقاً للحالة النفسية للفرد . أثناء عبورنا المياه أو مشينا فوق الأرض هناك . برغم تباعد المسافات بين الأفراد . فإن القلعاوي يتمثل الحالة النفسية التي عليها مقاتل الاستطلاع في المقدمة أو فوزي وحسان في أقصى المؤخرة تماماً كالقلب يدفع الدم إلى أقصى أطراف الجسم لكن هل يرى الدم أثناء وصوله إلى أطراف الأصابع ؟ كل مقاتل باتجاه المهدف كوحدة مستقلة . شعور ينتمي بأن القلعاوي يراه . يدرك ما يتعدد بين طيات نفسه ، يزحفه الخوف ، دقة الشجاعة . شجن ذكري معينة . ماذا يجعلني للمشي أياماً ؟ أفي في قتال ، ماذا يجعلني أفقن أنني عشت بما يكفي ولو فقدت عمري فسوف أقبل هذا ببساطة ، أهوا الوطن ، الحقد على العدو ، أو التاريخ الذي جعله القلعاوي مادة في برنامج تعليمينا ، أهي طريقة حديثه عن شهداء المجموعة وضرورة الثأر لهم . يقول أحد زملائي . بعد

كل حديث للقلعاوي أشعر أنني ازددت ثقافة ووعيا . يقول القلعاوى باستمرار ، لا بد من معرفة العالم ، هناك شيء مباشر يمكننى أنأشير إليه ، أمسكه بيدي ، أحسه ، أشعر بوقع نظراته . له كيان وحركة وجود . يمكننى القول إننى أفعل هذا لأننى كفء ، إننى عند حسن ظنه ولم ينطلى فى اختيارى مقاتلا إلى جواره . أرى القلعاوى أثناء سفرى واقفاف خضرة الحقول ينظر إلى المجهول من خلال منظاره ، أراه بينما فوق نقطة ما من سيناء . تفاجأ بهجوم مضاد . أتقدم منه . أقول له .. « يا أتقىدم اسمح لي أن أحى انسحابكم » ، أقبل راضيا وأنا أعلم ما يت天涯نى بعد عدد معين من الدقائق . قالوا عنه إنه محجب وأن من يقاتل معه لا يصاب وأن رجالا سودانيا عجوزا أعطاهم حجابا وأن هذا الحجاب يحمله في مكان ما من ثيابه وأنه يمنع نفاذ الشظايا إلى جسده . لم أر الحجاب ، قيل إنه قادر على رؤية الرصاصية والشظوية في مسارها أنه ينفذ بين الطلقة والطلقة . قالوا إنه عاش دائمًا بعقلية من يمر مرورا عابرا بالدنيا لهذا اندفع دائمًا في اتجاه الخطير . قال عنه البعض . « القلعاوى وش موت » . أراه صامتا كأنه يطمئنى ، أسمع صوته دائمًا في أذن . وفي لحظات انتقالى من اليقظة إلى النوم كل ليلة . مع أنه لم يتحدث إلى كثيرا ، لا أذكر صوته غاضبا . غضبه صامت باتر ، لم يتحدث إلى كثيرا أنا أقرب الناس إليه في وضع المجموع . لم يرتفع صوته في تمام الساعة الثانية عشرة والربع من ظهر الجمعة

---

---

١٩ أكتوبر . قال كلمة واحدة صداتها متصل في أذني حتى الآن . واضح كالطلقة الكاشفة التي تجرح صدر الليل بلونها الأهراء .  
« غطيني . . . . »

\* \* \*

نص حوار جرى بين اثنين من ضباط مخابرات العدو أمكן الحصول عليه . . . ونرى ضمه إلى مقتطفات السيرة لأهميته .  
المكان : مقهى قديم بالشارع الرئيسي بمدينة العريش المحتلة .  
التوقيت : الساعة السادسة بعد ظهر أحد أيام نوفمبر الأولى عام ١٩٧٣ .

ضابط (١) : إنني أميل إلى وضع الأمور في حجمها الطبيعي .

ضابط (٢) : ما أسهل هذا بعد وقوع حدث كبير . . حرب . . معركة . . الحقيقة تضيع تماماً .

ضابط (١) : كنت ستصوّل شيئاً . . ما هو؟

ضابط (٢) : تبدو الحقائق شاحبة بعد انتهاء الحدث . .

ضابط (١) : حصولكم على جتنـته . أمر لا يقل أهمية عن موته .

---

---

ضابط (٢) : قلت إنه من السهل اقتراح كل شيء بعد انتهاء الموقف نفسه .

ضابط (١) : وددت لو تأملته حيا أو ميتا .. في معلوماتك عنه هل تعرف كم عدد الساعات التي يامكانه أن يمشيها ؟

ضابط (٢) : توشك أن تردد بعض ما توهمه رجالنا الذين فرغناهم لقتله .. لا أعرف بالضبط قدرته على المشي .. بعضهم نسب إليه أمورا خارقة كقدرته على المشي أسبوعا متصلافاً أصعب الأرضى .. ستقول لي قدرات الإنسان وإمكاناته . لكنني أحفظ .. أذكر عبارة رددتها عدد من الأسرى أثناء استجوابهم .. قالوا إن ثقته بقدرات الإنسان لا حدود لها . وهذا أول شيء يقوله لمن يعمل معه .

ضابط (١) : انتهى كل شيء الآن .

ضابط (٢) : ومازالت أقول .. إن الحقيقة لن تبدو كما كانت عليه أبدا ..

ضابط (١) : ربما ..

\* \* \*

وعندما علم العقيد أركان حرب ( . ق ) بمشروع جمع سيرة عبد الله

---

---

القلعاوى .. طلب أجازة لمدة اثنى عشرة ساعة ليقص حادثة معينة ..  
لهذا نوردها كنتيجة لإصراره . وربما تبدو في غير موضعها .

أنا مدین له بعياق شهد النهاية والبداية . لم أره إلا مرة واحدة عندما حدث هذا منذ خمسة عشر عاما . اشتراك في دورية سير لاختراق منطقة وعرة من الصحراء . أمامنا بدأ اللون الأصفر لا نهائيا . العرض كالطول . نمشي . وخط السماء لنطبق على ثابت لا يتغير ، تجردنا من ثيابنا قطعة قطعة ، حاولنا حفر الرمال لتدفن رموسنا ، شربنا بولنا ، تشقت حلوقنا ، ! الشمس كمصابح قوته ألف ألف وات لا يمكن الهرب منه ، لا يمكن اليقظة ولا النوم ، وكما قيل لنا إن القلعاوى الذى اشتراك كعضو في هيئة التحكيم أبدى قلقا . لم نقلق نحن . لم تتماسك أصابعه ثم تنفرج . لم ينقل ثقل جسدة من ساق إلى أخرى يقولون إن عينيه ثبتتا في اتجاه واحد مؤدى إلى بطん الصحراء . فجأة طلب من رئيس الهيئة السماح له بالاتجاه إلى عمق اللامائية بحشا عن المفقودين . بسط الخرائط . يقول الذين شهدوا الموقف إنه اختار أصعب الطرق الذى يتعدى على خط سير الطابون ، حمل بعض زمزيميات المياه وعددا من القنابل الصوتية ، للأسف لم يحدثنى عما لاقاه في الجبل والصحراء . ما أعرفه أنه مشى ساعات متصلة في درجة حرارة تقارب الأربعين وعلى مسافات معينة يفجر قنبلة حتى يلفت أنظارنا إلى أن هناك من يبحث عنا . وعندما سمعنا انفجار القنبلة

---

---

تصاينا ، وقنا عرايا تماما ، بدا القلعاوى لنا كأنه يخرج من باب بيت ظليل مستفسرا عنها جرى ؟ . قدم إلينا جرعات قليلة من الماء فى غطاء الزمزيمات . جرعات لا تكفى ليل أفواهنا . تطلعنا بشرامة إلى الزمزيمات المغطاة بقمash أصفر سميك . بدا حازما حتى أتنا لم نفك فى طلب المزيد تصور حالتنا ، الجوع ، الظماء ، الإنهاك ، الخوف ، ! مع هذا عدنا مع القلعاوى مشيا على أقدامنا .. قبل وصوله بدا مستحيلا أن نخطو مترا واحدا ! مشينا سبع ساعات معه . لم نتوقف لحظة لم نقدر لم يشجعنا إنما بادلنا حديثا وديا عاديا ، بين الحين والآخر يقدم لنا قليلا من الماء فى غطاء الزمزيمية المحدود . تحدث إلى الرجلين اللذين جاءا معه حديثا موجزا . للأسف لم أعرف من هما ولا أدرى مصيرهما الآن . تقدمنا القلعاوى بخطوات ، ! كان لغة خفية بينه وبين رمال الصحراء ووحشيتها . خلت الأرض من العلامات المميزة والكتابان ومع ذلك بدت خطواته راسخة في اتجاه اليمين واليسار وإلى الأمام . في الصعود والتزول ، احتملنا المشي معه ، كيف لا أدرى الآن . لم يشك أحدنا ، لم يقل لفظا ، أو ، آمة .. هذا هو القلعاوى ..

\* \* \*

---

توجهت اللجنة الخاصة بجمع السيرة إلى المقاتل (ك . ي) رئيس

عمليات المجموعة السابعة . طلبت منه كتابة فصل عن أراء القلعاوي العسكرية وانطباعاته عن الحياة والناس كما عرفها ( ك . ي ) الذي يعتبر من أوثق الناس صلة به . لكنه رفض تقديم أي معاونة . قال إن كثيراً من الفضوليين وكتاب القصص والصحفيين السطحيين سيتذمرون من هذه المادة فرصة للكتابة عن القلعاوي ، ماذا سيقولون عنه ؟ إنه عاش بطلا ؟ إنه شجاع ؟ إنه قام بعبور القناة وسبأه أكثر من تسعين مرة . هل هذا ما يجب أن يقال عنه حقيقة ؟ ثم ينسون كل شيء . قال ( ك . ي ) أنه لن يشارك في استباحة دم أقرب الخلق إليه . قال إن القلعاوي يجب أن يذكر بطريقة أخرى أنه يعيش هنا - خطب صدره براحته - في رجال المجموعة . في كل من خدم معه ، ! ليتعقب سيرته من يرغب . لكن ( ك . ي ) : سوف يذكرها بما يليق بالقلعاوي ، لن يبوح بأى شيء لأى لجنة ، أو صحفي ..

\* \* \*

## قسم به معلومات عن الأوسمة والنياشين :

في حجرة الاستقبال البسيطة بمنزل القلعاوي ( يلاحظ بساطة الأثاث وخلو البيت من كل ما هو زائد عن الحاجة ) ويرجع البعض هذا إلى الظروف التي تم فيها زواج القلعاوى ، إذ إن أسرة زوجته عارضت الاقتران به . فاضطر إلى فرض الأمر الواقع عليهم ، تحمل القلعاوى كل تكاليف تكوين البيت ويبدو أنه استكملا بعض الحاجات خلال العام الماضي إذ توجد فواتير شراء سواب كتب ، وردديو ضخم به بيک أب وتاريخ هذه الفواتير يعود إلى شهور خلت ، ويقول البعض الآخر إن بساطة ترجع إلى شخصية القلعاوى ، لم يره أحد يعتنى بالظاهر . بل إنه لم يرتد هو أو امرأته أو عياله أى ثياب مستوردة . وعلق على هذا يوما في حديثه إلى أحد أقاربه قائلا : إذ لم نرتدى نحن مصنوعاتنا الوطنية فمن سيرتد بها إذن ؟ .. في مواجهة الصالة توجد مجموعة كبيرة من براءات النياشين والأتواء التي حصل عليها عبد الله بعد أسبوعين من ١٩ أكتوبر أخرجت السيدة ماجدة القلعاوى هذه البراءات والنياشين . وقضت ليلة كاملة تعلقها بعناء ، تملأً منها بالمسامير الصغيرة ثم تتناول واحدا وراء الآخر لتدقه برفق حتى لا توقف سامح دليل ، ويبدو أن ابني القلعاوى عرفا

---

---

الخبر في هذه الليلة ، من الثابت أنه لم يرحب في عرض هذه الأنواط والنياشين ولم يعلقها على صدره نظراً لارتدائه الأفرو باستمرار . لكن شوهد مرأة يتوجه لمقابلة أحد القادة الكبار ويعلق مجموعة من النياشين (تشخلل) على حد قول أحد زملائه الذي قال إن أي مقاتل يود لوحصل على وسام النجمة العسكرية مرة واحدة ، القلعاوي حصل عليه ثلاث مرات . ويمكن القول إنه لا يوجد مقاتل على امتداد تاريخ الجيش المصرى حصل على مثل هذه المجموعة ، في هذه الليلة وضعت السيدة ماجدة نوذجاً صغيراً لطائرة ميج ٢١ فوق منضدة صغيرة كتب عليه :

« إلى العميد أركان حرب عبد الله القلعاوي » .

إن عملية اقتحامكم للسان التمساح ، وتدميركم لموقع صواريخ الموك .. لمن العمليات التي سيدركها التاريخ بالفخر والاعتزاز .

مقاتل طيار زميلك

٦٩/٧/١٧

\* \* \*

« يتحدث العقيد صابر .. وهو أحد من شهدوا اقتحام القلعاوي للسان التمساح ومهاجنته قواعد صواريخ الموك » .

---

---

بدأ القلعاوي مضطربا ، وعندما أعلن قراره قلت إن هذا جنون ،  
وقلت لرئيس عمليات ..

« إن عودته إلى الضفة الشرقية أمر في غاية الخطورة .. » .

لكنه كما يقولون ، لا يقبل هذا أبدا ، وشاء حظى أنأشهد إحدى هذه اللحظات التي يتحدى فيها القلعاوي الخطر والموت ، لو جرح أحد رجاله لابد أن يعود به ، لو استشهد فلا بد أن يقاتل حتى يعود بجثمانه ، ربما يفسر هذا ذلك القتال المر الذي خاضه رجال المجموعة السابعة جنوب الاسماعيلية ظهر الجمعة ١٩ أكتوبر . اندفع في اتجاه القناة . رأسه عار فهو لم يرتد خوذة فقط . الاندفاع الإنساني الأبدى في اتجاه المصير المحدد . رفعنا درجة الاستعداد للدرجة القصوى ، وبدت الساء بصفاء يوليومنبعا للهلاك ، اضطرب قارب المطاط قليلا ، جنح إلى الشمال امتارا ، ثم استقام في اتجاه الضفة الشرقية . وقفزت سمسكة ضخمة من الماء مرات . اختفت . كقبضة صارمة بدت كتلة الدخان الناتجة عن انفجار دانة الهاون ، انبطح مع رجاله الأربع الذين صحبوه ، قاموا ، تقدموا ، انفجرت دنانات أخرى ، تجمد الدخان في الفراغ . وسمينا في الدشم والختادق والملاجيء صوتا عاليا نقل عبر الشظايا ..

- يا سعيد .. يا سعيد ..

---

---

ينادى رجاله الجرحى ، كيف يصدر هذا الصوت المرتفع القوى من القلعاوى ، الهداء ، المستكين .. الذى لا يتحدث إلا همسا ، اختفى عن ابصارنا ، لم نر مصدر النداء . بدا قادما من الأرض والساتر الرملى . من عند خط السماء المطبق على الأرض .

\* \* \*

ما أدل به أحد مقاتلى المجموعة السابعة .. لم نذكر اسمه لأن زملاءه وصفوه بأنه «مطلوب» أى أن العدو وضع اسمه في قائمة من يحاول الانتقام منهم ..

أنا عملت مع القلعاوى . أنا أحد الثلاثة الذين عاد بهم القلعاوى من لسان التمساح . حطوت معه فوق سيناء ، رأيته طيفا ليلا ، يخطو بلا حس يسمع ، يصدر أوامره بصمت ، يمشى الساعات الطوال فيخجل الواحد منا أن يصرخ بارهاق ، بتعب ، يتحمل .. يتحمل حتى يثبت له أنه جدير بالقتال إلى جواره أنا حاربت معه ، ! هو اختارنى . اختارنا واحدا ، واحدا ، حاربنا معه إسرائيل . بعد فترة معه عرفنا عنه كل شيء ، عرفنا أن القلعاوى جاء إلى الدنيا ليقاتل . لم يتحدث الواحد منا إليه كثيرا ، لكن كل خروج معه يقربنا إليه مسافات ومسافات . أنا عبرت معه ستة وثمانين مرة ، سلكتنا معه الأصعب دائمًا ، إذا اتجهنا إلى هدف

---

معاد فإن ثمة ثلاثة أو أربعة طرق تؤدي إليه ، نسلك نحن الطريق التاسع ، قضينا معه الساعات الطوال فوق رمال سيناء لم يتقييد بتوقيتات ، كما يقولون إنه يندمج تماماً في القتال ، يصبح ميلاده مع بدء العمليات ، لا مجال معه لاستدعاء التفاصيل ، لرفيق الصور ، معه يت天涯 الخوف القلق . ألم بتفاصيل الأرض التي غر عليها ، أثناء عبورنا الخليج ، مياه البحر جزء من سواد الليل ، ينظر إلى النجوم ، إلى الماء ، يطلب تغيير الاتجاه عدة درجات ، يندهل الدليل بقدرته على افتقاء الأثر أطلق أسماء معينة على مناطق الصحراء المختلفة ، توجد الآن كراسة في درج مكتبه - (لم يدخله إنسان منذ الجمعة ١٩ أكتوبر) حتى تليفونه المباشر لم يستعمله أحد ، كثير ما سمعناه يرن ، أحدهم لم يعرف بعد ، في الأيام الأولى تكرر الرنين مرات ، تفضي الأيام ويقل حتى يصبح نادراً ، لم يرد أحد ، حتى هذا الرنين الذي بدد صمت فجر الثلاثاء الماضي ، صحبه اصرار ، ايقط النيمانا ، لم يرد أحد ، ويدا صوته قادماً من صمت الليل يذكر (بعد الله القلعاوي) - في هذه الكراسة أسماء وعلامات اطلقها على الصخور والتلال ، أسماء زعماء اقطع صورهم من مجلات والصقها فوق ورق أسود مقوى ، أحد عرابي ، سعد زغلول ، إبراهيم باشا ، إبراهيم باشا ، أعرف أنه أطلق أسماء ولديه وأمراته وشهداء المجموعة على بعض مناطق سيناء ، لوسائله عن شارع قصر النيل في وسط المدينة ربما أخطأ الرد ، ربما

لم يره إلا من نافذة سيارة ، رأيت القلعاوى يطوف بارض الطابور ، كأنه يمشى على حافة افريز مبنى ضخم ، يمشى محاذيا حدقة مزدحمة بالأطفال والنساء والرجال والصراع والمرح ، كأنه يلامس أطراف موجات هدا صخبا عند الشاطئ . أنا رأيته ينظر إلى النساء الليلية عند أطراف معسكرنا بالصحراء الوسطى ، أيسنلهم ملامح خطة ؟ أيفكر في تطوير زناد سلاح بحيث يصبح أسرع بمقدار جزء من الثانية ، أيمهد نفسه ليفك أسرار وشوشات النجوم ، سمعته يقول ، النجوم للرمال وشوشة .. أعرف أنه نظم شعرا ، لكنني لم أقرأه ، لو فتحوا أدراج مكتبه ربما عثروا على بعض قصائده ، أحيانا رأيته أكثر مما أرى نفسي ، أحيانا بعدت به المسافات عن غير أنني منذ ١٩ أكتوبر يتيم ، أمشي بساق واحدة ، وأحرك ذراعا واحدة ، ربما أستعيد ما فقدته لو طرقت الأرض نفسها ، الدروب التي سلكتها معه فوق سيناء أقول .. من هنا من القلعاوى غير أنني الآن أطرد الأسى عن فأقول لكل من القاه ويلقاني .. أنا عملت معه ..

\* \* \*

ذكر بعض مشاهد متفرقة من حياة القلعاوى :

\* مطعم بيدان الحسين ، ! الموائد مصفوفة فوق الرصيف ، تغرق المبانى في الظلال ، عابرو الميدان بسرعهن ، إنها اللحظات التي تسقى

---

---

مدفع الأفطار ، مائدة حولها سبعة أشخاص يتصلونهم القلعاوى ،  
ابتسامته هنا راضية ، تعكس راحة وكان أمرا خطيرا تحقق وكأنه سيقضى  
عمره مجاورا للحسين ..

\* يتأمل زعانف مطاط تستخدم في الغطس ..

\* السبت ٦ أكتوبر ، يدير قرص التليفون .. ماجده ..  
مبروك .. الحرب قامت ..

\* أمام باائع كتب قديمة اعتاد فرش بضاعته على سور مستشفى  
الولادة وسط المدينة في السيماء غمامات بنفسجية ، يقف البائع محيا ، يقول  
القلعاوى . « أهلا عم كامل .. » .

\* على باب طائرة هيلوكبتر ، تطير على ارتفاع منخفض جدا ، تبدو  
بيوت المدينة ومع ضوء النهار الواهن يلمح القلعاوى ظل الطائرة فوق  
الاسطح والطرقات . عند نقطة معينة فوق المبانى تبدو على شفتين نفسم  
الابتسامة الموجزة الغامضة والتي قال البعض انها نتيجة تفجر ذكريات  
معينة ، بينما أكد آخرون انها ثمرة خواطر عابرة ربما تص岷ت مرحبا ، وفي  
الشهور الأولى من زواجه حارت السيدة ماجدة في تفسيرها وسألته كثيرا عنها  
يفكر فيه ، عندئذ تختفى تلك الابتسامة الدقيقة الموجزة ، واعتادتها بمرأته  
كأحد ملامحه .

---

---

## \* متصف ليلة الثامن عشر من أكتوبر يقف أمام (س) بمركز العمليات

القلعاوى : هل يمكننى ان اوضح  
(س) الموقف كما ارى واضح ..

القلعاوى : لقد قلت ملاحظات ، وبرغم هذا سأقوم بها .. لم تسمع  
بقية الحوار تماما كما أن المقاتل (د) الذى رأى القلعاوى بعد خروجه مباشرة  
يؤكد أن الشعور الذى خرج به إلى تلك العملية مختلف تماما لكافه  
العمليات التى قادها ، قال (د) أنه لا يستطيع وصفا لحالته بالضبط .  
لكنها تستدعي إليه حادثا بعيدا من طفولته ، إذ حدث أن خرجت أسرته  
للسفر إلى بلدتهم وعند القطار راح شقيقه الأصغر محمد يشد ثوب والدته  
إلى الوراء كأنه يود الرجوع إلى البيت ، بمجرد وصوفهم أصيب بمرض  
لا يدرى (د) حتى الآن طبيعته أو اسمه ، ما يذكره أن شيئا اسمه (أبو  
درية) جاء مرات ليضع على جبهة شقيقه أحجية مثلثة صغيرة ويقرأ الكثير  
من التعاوين ، آخر صورة يذكرها لشقيقه رؤيته ملفوفا في أغطية وثياب  
تعفى جسله ، لا يبدو إلا رأسه وعيناه فيها استسلام عجيب . سنوات  
طويلة تلت هذه الزيارة وأمه تقول : شعر محمد بما يتمناه ، عرف أنه لن  
يعود ، لو أتنا رجعنا معه لعاش وبلغ الآن كذا من السنين . يقى (د) أن

---

---

القلعاوى استشهد نتيجة عملية التاسع عشر من أكتوبر .. عندما استدعتهم السيدة « ماجدة » لتعرف من كل مقاتل في المجموعة السابعة تفاصيل الساعات واللحظات الأخيرة لزوجها ونوعية المشاعر التي ارتسمت على وجهه كاد ( د ) أن يقول لها ما يثق فيه ، ان القلعاوى خرج وهو يعرف بل موطن بما سيحدث أطرق ( د ) فكرفي صعود القلعاوى تبه الرمل . لو تأخر خطوة واحدة لا خطأته الشظبية ، لو خططا الى الأمام لما نفذت اليه ، لو تبادل مكانه في المقدمة مع مقاتل آخر . لو تأخر التوقيت دقائق لو اهتزت فوهة المدفع لحظة خروج الدانة ، لكن كما قال أحد الرجال أن هذه الشظبية انتظرت اللحظة المناسبة بعد أربع وتسعين عملية عبور واستطلاع وقتاً ..

\* قرب الاسماعيلية . يلمع رجلا عجوزا يسند ذقنه الى عصاه وامرأة شابة وطفلة ولحافا مطبيقا وطشتا به موقد غازى . قال عبد المؤمن السائق .. لاجئون من القرى التي احتلها اليهود .. قرض القلعاوى أظافره .

\* قبل خروجهم من القاهرة في نهاية طريق صلاح سالم ، فوق مساحة خضراء شبان يرتدون ثيابا كاكية . حولهم حقائب جلدية بعضها مفتوح ومقدم ما يستخدم في الجلوس بالشرفات يدقون أوتاوا خشبية تمهدوا لشد خيمة لم تفرد بعد ، هل رأى بينهم فتاة ترتدى الزي الأصفر ، فكرفي

---

---

---

ليلي ، عندما تبلغ الرابعة عشرة .. الخامسة عشرة . سيدعها تسافر بمفردها تكتشف مصر .

\* قبل تبة الرمل ، يتقدم المقاتل (ك) يقف بجوار القلعاوى .

ـ دعني اتقدم إلى أعلى التبة .

يلتفت إليه عاري الرأس لم يرتد خوذته طوال عمره أبدا في كافة العمليات .

ـ أرجع ..

ـ سأتقدم أنا .. الموقف غير واضح ..

ـ يقبض القلعاوى ما سورة الرشاش .

ـ اسمع .. أنا لم أصدر إليك طلبا في صيغة الأمر أبدا .. الآن أطلب منك أن تلتزم مكانك .. نفذ الأمر ..

ـ على مهل راح يتسلق التبة الرملية تتاثر ذرات رفيعة حول كعبية ..

\* \* \*

ورقة من ملف الخدمة .. تحرر في ٤/٧/١٩٧٣ البيان التالي  
بالمصادبات الناتجة عن القتال .

---

آثار طلق ناري بالساق اليمنى . التاريخ ١٩٦٥/٥/١ اليمن

شظايا بالرأس ، التاريخ ١٩٦٧/٧/٦ ، رمانة .

شظايا بالساق التاريخ ١٩٦٩/٤/١٩ ، الطور .

\* \* \*

### ذكر السيدة زوجته وبعض أحواها :

حدث في ليلة الجمعة ١٩ أكتوبر أن نزلت السيدة ماجدة الموارى .

عبرت فناء البيت تنظر إلى الأمام . خطواتها مت雍مة ، وقفت لحظة أمام مدخل البيت ورأت فتاة تحمل سلة يطل منها مقدمة أربعة أرغفة فينو وتنفس علبة زيت خضراء اللون عليها اسم أسد ، ورأت شاباً يمسك يد صديقته ، ومرقت سيارة بداخلها خمسة أشخاص يرتدون ثياباً بلدية ، وعلى مهل خطت قطة سوداء فوق جسدها بقعة بيضاء كبيرة . ولاحظت أن عمود النور المواجه للبيت به فتحة قرب قاعدة السفل تطل منها أسلاك كهربائية عارية . وفكرت أنه من الممكن أن تصفع هذه الأسلاك طفل أو رجلاً أو سيدة عمباء ، وعندما توقف التاكسي فتحت الباب بدون أن تنحنى ولو رأها أحد رجال المجموعة السابعة أو أحد زملاء القلعاوي في الكلية الحربية ، أو الذين عملوا معه في الصاعقة ، أو أحد الذين حابوا معه في بور سعيد واليمن وسيناء . لرأى نفس الطريقة التي يقدم بها

القلعاوى على ركوب سيارة . نظر السائق في المرأة المغلقة فوقه . سأله إلى أين ! « العباسية » ارتفع صوت المحرك . ولاحظت أصوات الشوارع الخافتة ، وفوق الأرصفة وخلف النوافذ المغلقة وفي الشرفات المهجورة يطل عبد الله القلعاوى هادئاً على وجهه ابتسامة الآمنة كعطر الورد تصعدى إلى مذاق حسه الهدىء . « لا تبكي » . حازم . باتر كطلقة لا يريد لها أن تبكي . وهي لم تبك بل فكرت في لحظة خروج الألفاظ من شفتيها وهي تنهى الخبر إلى والدتها . تسألاها عما يجب عمله مع الأولاد . فكرت ، أنها بدوا يوم أربعة ، واليوم الجمعة ، البداية لحظة زيارتها لاخته منذ أربعة عشر عاماً ، دخوله الهدىء إلى شرائينها ، هدوء عينيه الذي لم يتغير عند خروجه إلى عملية أو عودته من دورية . وعندما قبلها بعد لحظات من انجابها ليل . الرؤؤية الأولى حوت كل شيء ، ضمت كل التفاصيل التي تكشفت واحدة أثر الأخرى على امتداد أربع عشرة سنة ليل عمر العلاقة . ليل الآن صديقتها وسندتها وليس ابتها فقط وهي من ستطلع إلى عينيها إذا ما طرق باب البيت غريب ، وهي من ستري في وقوتها وقفه عبد الله . تماماً كوقفه في الشرفة . أو أمام مدخل البيت يتظاهر السيارة . ستتحضنها تدعوها إلى جوارها وتقول لها ، إن أباك سينتأخر ، لو طلبت ليل وسامع رؤؤية التليفزيون أو سماع الراديو أو إحدى اسطوانات عبد الله . فلن يقانع . هكذا يريد . توشك أن تلفظ اسمه الآن ، توشك أن تشم رائحته

---

أثناء عودته طوبل اللحية ، يطلب قرفة ماء ساخنة . في بدايات الليل بعد أن يغادرها تصفي إلى صوت هيلوكتر يعبر الليل والصمت وال عمر . ترقب طمأنينة سامح وليلي . تخرج إلى الشرفة حتى في أيام الشتاء ونزول المطر . تتدثر بالمعطف . ترقب اكتمال الليل ثم شحوبه وبدايات الفجر . تكاد تتبع العملية ، بعد نصف ساعة سيخطو هناك . هذه هي المرة الخامسة . الواحدة والخمسون .

لم يمحك لها تفاصيلا . وقع خطواته هناك يتعدد عبر ضلوعها الأربع والعشرين . لا تذكر أنه قال لها « أحبك » . قبل زواجهما يستمر صمتها لحظات . فجأة يقبض يدها كأنه جناح طائر غريب . تأمن وتستكين قال إن أيديها حلت عباء التعبير عن عواطفهما زمانا ، نظرته إليها حلوة ، هادئة . فياضة لا ترجمها دانات . لا تحرجها شظايا . بعد عودته يتمدد بكمال ثيابه الكاكية . تستعيده من جديد . رجوعه كالولادة يبدو فرحا كالطفل . خلق شيئاً جديدا . بعد رجوعه موفقاً تدركها نفس هزة البداية قالت له أنها خافت إلا يستمر الوهج بعد زواجهما . أن يدركها ملل . ابتسם . لا يعيش الملل والخطر . قال أنه أكثر جرأة على مواجهة الخطر بعد حياتها تحت سقف واحد . تململ أصحابه تستكين يده الليلية الضخمة . مع عودته تعيش سعادة دافقة . كان المفروض أن تحرم منه أن يخرج لا ليعود يرجع أولاً يرجع ، السيدة مجدة الموارى الآن لا تبكي . تتنق

---

أنه يرقبها من مكان خفي ، يراها ، يدرك رجفات قلبها ، عليم بما سيحدث لها غدا . يرى عمرها الآق ، الآن لن تبكي وسبل الاتصال بينها مقطوعة ، خلال الأيام المقبلة ستبشر هذا الطريق مرات . في نفس الاتجاه . في الاتجاه المقابل لن يصحبها . لن تجلس إلى جواره بينما تطل ليل وسامح من النافذتين الخلفيتين ، ستعتبره ليل يتيمة عندما تصير طالبة . هلستمر الهيلوبكتر في نفس الميعاد ؟ لن تنتظر ، تخشى لحظة تستيقظ فيها يملؤها يقين أنه يقف في الصالة . إنه أعد الشاي بنفسه . إذ تجلس إليه قد يبدى ملاحظة حول آخر لحظة ، حول بعض رجاله . أنهم يتشارون حوله ولكته في الظلام يبدو كرقائق المعدن المثبتة إلى أجهزة اليكترونية معقدة يتلقى ما يشعرون به أما هوفلا بيوح بالامه فقط . لا يزعج محبيه . عندما أصيب بشظايا في ساقه قرب مطار الطور ، مشى فوق الصخور ، عبر الخليج ضغط ألمه حتى وصل إلى معسكر الإقلاع . لم يقل آهة واسدة وضع يده بين أسنانه وراح بعضها ، يقتل الألم بالألم . أيام خطوبتها بين الحين والحين يهاجمه صداع غريب تعقبه فترة من الوقت تغيم الرؤية دائمًا عن عينيه حتى يصل إلى لحظة لا يرى ما يحيطه إلا بصعوبة عرفت فيما بعد ضرورة إغلاق العينين عندئذ . لكنه ظل مفتوح الحدقتين دائمًا . ينفي علامات الضيق من ملامعه . يستدير ليتناول قرصاً أصفر . سأله . قال إنه صداع لكن أي صداع ؟ تراجع البيوت بسرعة ، عندما يتأخر أو

---

---

يقضى ليته في المقر تتصل به حوالي الثالثة صباحا . ربما تبادلا كلمة أو كلمتين أما الآن لو أدارت الرقم في نفس الميعاد الليل المتأخر ، من يرد . من يجاويها من . ؟ ستلتقي بكل من رفاقه تستجوههم بدقة . تعيش من خلامم لحظاته الأخيرة . آهته الأخيرة هل لفظها أم كتمها ؟ عندما تسألها أنها ستقول كما قال عبد المؤمن « مات مية نتمناها كلنا ، جاءت الشظية في موضع القلب تماما » ، عندما تستفسر أنها عن الجثمان ستقول « رجاله جابوه » إذا نظرت أنها إلى عينيها الجاثفين ، إلى نظراتها الحادة المستقيمة ستقول إن عبد الله علم كل من يعمل معه أنه لا حدود لقدرة الإنسان لما يمكن أن يقدمه ، أن يجتمله . حتى الآلام الوعرة يمكن قهرها . شظايا في الساق كانت أولى بصعيم القلب لهذا لن تبكي قط . لن تدمع أبدا .

هامش آخر :

أجمع عدد كبير من مقاتلي المجموعة على أن القلعاوي يخرج في كل عملية وهو يعلم احتمالات موته . لكنه في العملية الأخيرة بدا موقنا من النتيجة . من الموت . هكذا تقول كل الدلائل . لهذا تم التوجيه بسؤال (ك . إ) رئيس العمليات وأقرب الخلق إليه مع احترام رغبته في عدم الإدلاء بأية تفاصيل . قط يحب بالنفي فيها أو الإيجاب « كيف بدا القلعاوي تلك اللحظات التي واجه فيها (ك . إ) وطلب منه بصيغة الأمر لأول مرة عملاً معاً ان يلزم مكانه ولكن (ك . إ) عندما وجه إليه

---

---

---

السؤال بدا حزيناً كأنه تقدم في السن أعواماً عن اللقاء السابق الذي تم  
معه منذ أسبوعين . لم يتكلم كثيراً لم يجد ساخطاً . لكنه رفض الحديث  
رفضاً باتاً ..

١٩٧٤

**السبّوبة**

〈 ٢٠٩ 〉

جمال النبطان

حدث ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ ، أن طارت شظية من دانة هاون ٨١ ملل إسرائيلية الصنع ، حد من انداعها في الفراغ ربة عويس السويسى فذبحته ، دفن على عجل بمقابر اعدت بسرعة غرب المدينة ، لم توضع فوق قبره لوحة تحمل اسمه ، لم ترصن حوله أحجار بشكل منتظم ، لم تغرس عصاه تحمل خوذة . لم يرتد عويس خوذة أبداً إذ أنه لم يمهدن في صفوف الجيش ، لم يتسلّم أى مهامات بعد انضمامه إلى المقاومة أثناء الحصار ، حدث أن ارتدى خوذة مرة واحدة عندما جلس صباح يوم غائم إلى جندي صعيدي يمهى أبى رواش الذى تهدم جزء كبير منها ، لم ير الجندي من قبل ، في تلك الأوقات يحدث كثيراً أن يمهى « انسان ويجلس بالمهى » . لا يطلب مشروباً ، لا يسأله خليل الجرسون ذلك لأن الأقوات عزت جداً ، كوب الشاي نادر لقلة المياه وشدة الحاجة إليها ، رغيف العيش يأكله أكثر من شخص . حمن عويس أن الجندي من الصعيد ، يتحدث دائماً إلى من يلفت نظره ، إلى من يحاوره فوق الرصيف ، أو في رقدة أمام مسجد أو فناء بيت قديم ، يبدأ بسؤال لا يتغير ، من أى بلدة أنت ؟

---

---

حول عيني الجندي ما يشبه رذاذ جبر مطفأ ، قال انه من البدارى بدا غير راغب في الكلام إذ إنه عاد إلى اطراقه وكان حوارا لم يتم ، أبدى عويس حساسا وكأنه عاش عمره يتضرر أى قادم من البدارى .

« البدارى ؟ أجدع ناس » ، أحنى الجندي رأسه شاكرا ، وجه نظراته إلى بيت قديم متهدم على الناحية الأخرى من الطريق . رصد عويس نظراته ، صاح موضحا أن هذا البيت دمر أثناء حرب الاستنزاف في غارة طيران ، عام ١٩٧٠ ، استشهد فيه موظف بهيئة قناة السويس اسمه رشاد أفندي ، لا يدرى متى أحيل إلى المعاش فمنذ أن وعى وهو يرى رشاد أفندي محلا إلى المعاش ، يجيء يوميا إلى المقهى ، ويجلس فوق الكرسي الذي يستريح عليه الجندي ، يشرب ثلاثة فناجين قهوة ، يسأل عن خليل ، هل وصلت رسائل ، حوالي الثانية عشرة يقوم متمهلا ، لا ينبعج من بيته الا صباح اليوم التالي ، كل يوم أربعاء يطل زجاج نوافذه ، باللون الأزرق ، منها اشتد القصف لا يتزل ، لا يغادر بيته الا في ميعاده اليومي إلى المقهى ، آخر يوم جاء فيه اقترب منه عويس طارقا صندوق ، زجاجات الأصباغ وعلب الورنيش بالفرشاة ، هز رأسه نفيا ، قام ، تابعه عويس ، بعد دخوله البيت بدقائق جاء الطيران ، وكان الطيار اسقط قبله بحبل ، أصابت البيت تماما ، أو مسح الحذاء ، لو تمهل في شرب القهوة ، لكنها الأعمار ، لكم بدا خلال حياته مستعصيا على الحديث ، حتى في لحظات

---

قصف الطيران ، تتطاير شظايا اصوات قذائف المدفعية المضادة ، لم يتحرك قيل في السويس انه عند حدوث قصف يمكن مشاهدة سويسين لا يفارقان مکاهنها ابدا ، لا يتزلان الى خندق ، لا يختيمان وراء ساتر ، انها رشاد افندي وعويس ، عويس يرى في الشوارع طوال الليل والنهار ، لا يدرى أحد ، هل معه بطاقة أم تهجير أم لا ؟ هل لديه بطاقة شخصية ؟ هل لديه شهادة ميلاد ؟ هل تلقى تعليما ؟ من سمح له بالبقاء بعد تهجير الأهالى ، يقول عويس انه عند تصنيف الأهالى تمييزا لترحيلهم لم يتملك أى مستند يتقدم به ، لم يذكر محافظة يرغب الذهاب اليها ، أو وظيفة ينتقل اليها ، أو مهنة ليungan على الاستمرار بها ، يضحك عويس ، لو اصرروا على ترحيله لوجد ألف وسيلة يعود بها الى السويس ، يقول انه سعى كثيرا للالتحاق بعدد من الوظائف ، قدم الكثير من الخدمات لموظفو منقول الى السويس على امل الحاقه فراشا بمديرية الصحة ، مسع حذاء الموظف مجانا ، عندما باع الليمون اختار أكثر الشمر طراوة وامتلاء بالعصير ، نظف شقة الموظف يوميا ، غسل غياراته الداخلية .

رتب حقائبها عند السفر ، فجأة ابتعد تماما عن الأفندي ، صار يزah ماشيا على الرصيف فيعبر الى الرصيف المقابل ، لم يعرف إنسان سر هذه الجفوة لم يتم أحد بمناقشته الأمر لأن علاقات عويس وتصرفاته وكافة ما يقوم به لا يهم أحدا ، انه يظهر فجأة في ليالي السهر ، يصفق ،

---

---

يرقص ، يرفع الكرسي بأسنانه ، يقلد النشال والمقدد وضابط الأمان والكمسارى والقبطان ، آخر السهر لا يسأله أحد كيف سيمضى وإلى أين سيذهب ؟ لم يصحب إنسانا إلى البيت .

لم يمتلك مفتاحاً أبداً ، لم يحمل عنواناً ، كثيراً ما رقص وأدهش ، ويحدث أن يقوم الحاضرون لتناول عشاءهم ولا يدعونه فيفي مكانه لا يطلب ولا يسأل مع أن الجموع يقلق نومه المتظر ، لم يشك الوظيف الشاب لأى انسان ، لكنه شكا إلى هذا الجندي من أولاد الحرام الذين لا يعرفون مقادير الناس ، قال إن الموظف عرض عليه الذهاب ليعمل خادماً بأحدى الشقق بالقاهرة ، وعندما قال أنه لا يستطيع مفارقة السويس ، سخر منه وقال ، من يسمعك يظننك تمتلك العمارات والدكاكين ، قال إن لسانه لم يخاطب لسان الموظف بعد أن طلب منه البحث عن .. عن امرأة يقضى معها وقتاً ، أكد عويس أنه لم يبع لانسان بحقيقة ما جرى ، تحدث الجندي عن البداري ، أبدى عويس تجاوياً ، كأنه قضى عمره في تلك البلدة البعيدة شرق النيل ، عدل الجندي وضع بندقيته سريعة الطلقات ، قال انه لا يخشى على أمه من الظروف ، أنها قادرة على مجادلة الرجال والخروج إلى السوق لتبיע المش القديم الذي تتقن عمله ، كما انه رفع المبلغ الذي تدخره إلى تسعة عشر جنيهاً خلال الأجازة

---

الأخيرة قبل الحرب ، يخاف عليها من القلق ، لم تصلها أى معلومات منه ، لم يصلها أنسان من طرفه ، يعرف حرقة الانتظار ، لا يدرى متى سيتهى الحصار ، تحدث عن نشاط أمه عند عودته ، حركتها من الفرن إلى الكانون ، جلسة أول الليل تحت سقف السماء التي تبدو من رحبة البيت ، قبل نومه تسأله ، هل يعوز حاجة ؟ قال عويس للجندي في ذلك اليوم انه لا يطيق النوم تحت سقف بيت اعتاد النوم والنجوم في عينيه ، لم يخرج من السويس أبدا ، لم ير مدننا غيرها ، بالتأكيد ولد فيها ، أين بالضبط ؟ لا يدرى ، رحلت عينا عويس إلى بعيد ، فجأة ضحك ، طلب من الجندي أن يعطيه الخوذة ليترديها ، أحكم الخزان الجلدي حول ذقنه ، قال انها ثقيلة ، تسأله : هل تحمي من الشظايا ؟ قال الجندي ، لا شيء يحمي الإنسان اذا حان أجله ، بعد لحظات قام الجندي ، افترقا على غير ميعاد ، عويس تحدث إلى العمالين في القطارات ، إلى العاملين على عربات النقل ، إلى أقارب الصعايدة المقيمين بالجنانين ، جنود المطافئ المنقولين إلى المدينة ، بعد الحرب كثيرا ما أصفعى إلى هؤلاء الجنود الذين رأوا السويس لأول مرة ، بعد لقائه بالجندي صاحب الخوذة ، حاول تتبع ملامحه في المدينة المحاصرة ، لكن الوجوه اختلطت عليه ، يضيق عويس بالحصار ، الطريق على امتدادها مغلقة ، العربات داخل المدينة منها اسرعت تبدو وكأنها تمضى في حركة دائيرية ، لأول مرة يأكل مع اشخاص

بعينهم ، أحمد الموظف بشركة البترول ، كفته البمبوطى ، قناوى المصور ، الملازم الاسكندران قائد المجموعة ، لم يحدث فى حياة عويس أن أكل فى طبق معين ، لم يجلس الى مائدة أو طبلية بعينها ، أكل فوق الأرصدة المواجهة لمحطة أوتوبوس الأربعين ، المقاهى الصغيرة ، كورنيش المدينة ، على شاطئ بور توفيق عندما سمح له قبل الحرب ببيع البيسيس كولا للمصيفين أكل ثمرات الطماطم وقطع الجبن على منديل قديم بني اللون طرز عليه حرف انجليزى تهراًت بعض الخيوط التي نسجته ، أعطاه له أحد قباطنة مراكب الصيد ، ذاق الفطائر عند ذهابه إلى المقابر أيام الأعياد ، لا أقارب له مدفونين هناك ، عادة يملاً منديله بكعكات وشطائر ثم يقرأ الفاتحة على أرواح بعض الراحلين من عرفهم بالمدينة ، بعضهم لم ييادله كلمة واحدة طيلة حياته كتوفيق بك الذى عمل مأموراً للسويس سينين طويلة وعرف عنه الطيبة وعدم الرغبة في إيهاد ضعفاء الناس ، يزور أكثر من جلس اليهم وهو الشيخ المرزوقي ، عاش ومائاه وأصرحة الأولياء والمساجد وقضى حلوة طويلة بإحدى مغارات جبل عتاقة ، آمن عويس بأنه طواف يذكر اسم الله في البلاد ، قدم له خدماته حتى مات في المدينة بعد مرض قصير رفض خالله الذهاب إلى أي مستشفى والاستعانة بأى طبيب بعد الحصار وانضمام عويس إلى المقاومة لحظ الملازم اختفاء أثناء مواعيد الوجبات ، قال قناوى المصور أن عويس يأكل في أي مكان ، أبدى

اللازم اعترافا ، أن الطعام في المدينة قليل ، وربما يخجل عويس من الجلوس معهم ويلقى صعوبة في الحصول على قوته ، في البداية ضاق عويس بجلوسه معهم ، خيل له أنهم يتظرون اليه خلسة ، انه يرتكب أخطاء لا تليق او يأخذ أكثر من نصبيه ، في ثالث أيام تناوله الغذاء معهم نزل الى صمت المدينة حيث أعياد الحscar وصدا الخريف والنواصي التي لا يتظر ظهور أطفال يلعبون عندها او نساء يختلن في زيتهن ، توقف ، صاح بصوت عال ، « هذه الطريقة لن تنفع » ، انه يمضى الى نوبات حراسته بانتظام ، لم يختلف تدريبا واحدا ، يسهر معهم الليلى التي يجب أن ينامها ، يصغى الى أصوات الليل ، إلى طلقات الرصاص الغامضة ، يتأمل أنصهار السواد لثوان بتأثير الفليرز ، يتبع القحط المارقة ، مرتنة ، تذوب في السواد والخطر ، يحاول تفسير الأصوات الغامضة ، لكن أن يتناول الغذاء معهم فهذا يضايقه ، في المساء قبل ذهابه إلى وابور المياه سأله الملازم ، لماذا لا ينام مع الجماعة ؟ صمت ، لم يفكر أبدا في النوم معهم ، قال حزينا أنه ينام في أي مكان بالسويس ، قال الملازم هذا خطير ، ثم يجب النوم في مكان معروف ، ربما احتاجوا إليه ، ربما انهار فوقه أى بيت يأوى إليه عندئذ يتلاشى أثره ويضيع رجاه عويس أن ينام كيما شاء ، المدينة كلها معروفة له كراحة يده بدا مستعدا للتنازل عن أى طلب آخر عدا ما يتعلق بنومه ، قال لقناوى أن ظهره لو تمدد في مكان واحد ليلترين

متعاقبین يتتابعه ارق ويكسه ضيق ، أرصفة المدينة أكلت من جسمه  
حتتا ، في أعنف الاشتباكات شوهد متمددا فوق الأرصفة التي تقسم  
الطرق وأمام أبواب العمارت ، حدث صيف عام ١٩٧٠ أن سقطت  
دانة على بعد أمتار منه ، بترت شظاياها شرفة بيت استظل بمدخله قال  
خليل الجرسون أن عويس محجب حدث أن آوى إلى شقه في بيت يطل على  
الخليج نام بمفرده في البيت كله ، جاءه صاروخ كبير يمشي متمهلا في الهواء  
كالأتوبيس ، نفذ من سطح البيت ومن الطابق الثالث ، والثانى ، ثم  
استقر في صالة الدور الأول سليما ومازال متمددا في نفس مكانه كرجل  
ميت ، لم ينفجر ، ولم يتمدم البيت ، لكنه ما رأوه نائما في الطرق  
لا يخدره أحد إذا عوت صفارات الانذار ، ربما لعدم اهتمام إنسان به ، إذا  
احتاجه أحد وسائل عنه ، يقولون من الصعب العثور عليه ، لا مكان له ،  
ولا أقارب يمكن سؤالهم عنه ، لكن لا تخضى ثوان ويظهر ، يرى قادما من  
منحني ، أو خارجا من بيت مهجور متدمدا ، يظهر مثائلا ، يبرش ظهره ،  
أو يضحك ، كأنه يستجيب مقدما لأى مداعبة ، لم ير عويس يمشي  
متمهلا ، مسكا ذراع امرأة ، لم يلمح مؤنسا بأى ، لم ترو عنه  
مغامرات ، كثيرا ما جلس بعد قيامه بعمل ما ، يطلق تنبيدة ثم ضحكة ،  
ربما عقد ذراعيه وأطرق برأسه ، قال بعض العابثين إنه عاشق لأمرأة فلاحة  
كالقمر من الجنانين ، في كل مرة يصبح فيهم ، «اسكتوا» لم يبرو

---

---

مبعدا ، في ليلة ضيقوا عليه حتى أمسكه البعض محاولا تبرئه من ثيابه اختفى أيام لا يعرف عددها ، غيابه لا يلفت النظر ، ذات صباح ظهر أمام مقهى أبي رواش ، بدا مجدها ، شفتاه مقددتان ، زرقاوتان ، سأل عم خليل ..

« أمسح لك المنهى وأخذ قرشا » ؟

الشتاء مضاعف في المدينة المهجورة ، البلاط يفع رطوبة تكاد ترى في الفراغ ، انحى مسكا الحيشة ، أغرق الماء البارد قدميه المتشققتين كشبكة من حفر ، عمل عويس في اشغال عديدة ، غسل الصحون في مطاعم السويس الفقيرة ، عمل حمالا لأجولة الفول ، صناديق السمك ، هرس الطعمية ، عمل في رصف الطريق الممتد حتى قرى الجناين لمدة أربعة أيام آخرها رفض المقاول أن يعطيه أجرا ، لم يكله أحد بالعمل ، ولم يدرج اسمه في الكشوف . لم يناقش ، جاء في نفس اليوم إلى صاحب طلمبة بنزين يدوية :

« هل أدير لك الطلمبة اليوم مقابل رغيف وباذجاجان مقل » ٩٩  
لا يدرى أحد أين يضع صندوق مسح الأحلية ، يظهر مسكا به أحيانا ، يمسح لزيتون أو ثنين يختفى ليظهر مسكا حزم فجل وجرجير ، أو قفص طماطم ، بعد إحكام الحصار وانقطاع شرائين الطرق وارتداد اليهود

---

عن السويس بدا هائجا ، يمشي مهددا الفراغ يعلن لكل من يقابلة انه سينفذ بطريقة ما من هذا الحصار . دخل أحد المخابيء القريبة من مبنى المحافظة ، صاح في المتراجدين داخله ، هل يصدق أحدكم أن السويس محاصرة ؟ قال له الحاج حسن السودان موزع الصحف ، لماذا تبدو هائجا وأنت لم تخرج من السويس أبدا ولن تخادرها ، تعال وتطوع في المقاومة ، رأيتك تنقل صناديق الذخيرة عندما هاجروا البلد ، لا تقصصك الشجاعة ، تعال بدلا من طواوفك كالنحلة ، بقت شفته مفتورتان لحظات ، تذكري يوم أن حمل صناديق لم يتخيّل طوال عمره انه سيحمل مثلها لقتلها ، أثناء جريه تحت مبني المستشفى أطلت بعض المرضيات ، زعقنا ، قال عم خليل لعيوس انهم يستتجدون به مع أن عددا كبيرا من الأهالى والجنود راح يعدو في اتجاهات متفرقة ، اسرع الخطى مرددا ، « لن يصلوا أبدا اليهن » ، انظم عويس في أحدى جمومعات المقاومة ، فوجئوا به بحيد أطلاق النار ، فك البندقية نصف الآلية أمامهم ، نظف الكلاشنکوف ، فكه وقام بتركيبة من جديد ، قال أنه انقض هذا من صداقته بعديد من الجنود ، أبدى صبرا وجلا ، في الليالي الباردة يقف مرتديا الأغورول الصيفي الذي ظهر به منذ انضممه إلى المقاومة ، اعتاد الناس رؤيته في ملابس الآخرين ، جاكت كاروه ، صديرى بلدى ، قميص أفرنجى ، في شتاء أحد السنين ظهر بمعطف ثقيل طويل ، وقيل أنه عند نومه لا يلف جسمه به ، أغا

يطقه ويضعه تحت رأسه ، لم يتردد عند قيامه بأى مهمة ، عندما كلف باستطلاع موقع قريب للعدو قرب الماويس ، خاضن في الطين عاريا ، قضى الليلة في المجرى الضحل ، عاد يروى ما رأى ، ما سمع ، واللازم يدون ، يكتب ، في هذا اليوم سأله الملائم عن عمره قال عويس أنه لا يدرى ، تطلع إلى وجه الملائم ابن العشرينات ، بعد لحظة قال حضرتك من أى بلد ؟ ، في تلك اللحظة من قنواتي المصور ، رأها ميلسان أمام المقر ، الملائم يتحدث وعيوس يصغي ، لم يعرف ما يدور بينهما ، حدث في اليوم التالي الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ أن طلب الملائم استدعاء عويس فورا لدفعه ناحية مبان شركة شل ، حار أفراد المجموعة ، أبدى الملائم ضيقا ، ألم يطلب منه البقاء معهم فتوسطوا له حتى يدعه على راحته خرج قنواتي متضايقا بعد أن وعد بالبحث عنه ، عند الناصية رأه قادما ، لا يتحرك في فراغ الطريق غيره ، نفس الانحناء التي توحى لمن يراه وكأنه على وشك الجري .

« عويس » .

دهشة وجهه تمنحه براءة طفل ممزوجة بتعجب .

« الملائم يطلبك فورا .. » .

« الآن ؟ » .

«نعم .. .

«لكنني ذاهب الى الجنانين .. .».

هنا علا صوت الملازم الذي لحق بقناوى بعد خروجه ..

«هل جئت .. الجنانين فيها عدو .. .».

ردد النظر حائراً بين قناوى والملازم ، في تلك اللحظة برق شىء ما في ذهن الملازم ، أدرك ما جعله يتحدث الى عويس طويلاً ليلة أمس عن آخرته ، وأبيه ، وأمه ، والبيت ، وسريره الذى لا يمس طلماً بعد عن البيت ، وخروجه المسائى أيام الإجازة مجلس مع بعض أصحابه في مواجهة البحر صيفاً أو شتاء ، حدثه عن أصحابه ، وأوشك أن يحدثه عن حبيبته وعما يتبدلاته من أشواق في حدائق المتنزه ، في تلك اللحظة رأى فيه أكثر الناس الذين قابليهم قدرة على الاصغاء ، ويعث الأمان ، وأحساس آخر لم يدرك طبيعتها بالضبط ، لمح أيضاً آثار العمر في الضوء الغروبي الشاحب والصمت المخيم كأنه التمهيد لضجيج آت لن ينته ، تساؤل ..

«ما الحكاية؟ .. .».

قال عويس إن سبوية لن تعوض في الطريق ، سياتيه أحد الفلاحين بقفص طماطم وربطة فجل ، سيعطي المجموعة جزاً ويبيع ما يتبقى ،

---

---

قال إنها سبوبة لن تناح لأحد ، والخضار قليل جدا .

ارجا الملازم عدة أسئلة حول كيفية ذهابه ، كيف سيتلقى بهذا الفلاح ؟ كيف تم اتصالها ؟ يبدو عويس سهلا ، بسيطا ، قادرا على اجتياز أصعب الأمور ، نظر إلى وقته ، إلى انضغاطة كتفيه ، بها هدة عمر بأكمله وتعب ، إلى رقة جلد الوجه المعرض ذاتيا لقلب الهواء وقدد الفراغ وانكماسه ، إلى تعبيدات حول العينين ، بسبب ما تذكر والده العجوز لحظة عودته من المدرسة ، يبدو أمر ما يجعل عويس قريبا غير ذلك الشعور المصاحب لسلوك الأهالي خلال الحبهار والذي جعلهم يتقاربون ، أكثر ، ، ينام الأصدقاء في أي بيت مفتوح ربما لا يعرفون صاحبه .

« نحن نحتاج إليك يا عويس .. » .

« لكن السبوبة يا حضرة الملازم .. » .

« اختر اذن بين السبوبة .. أو الوطن .. » .

تصطدم قطعة معدنية غير مرئية ب حاجز ما ، ينادي شخص في مكان بعيد ، كالدوامة في الأعماق أحدهن الصمت صدى في الفراغ ، يغرق النهل مداخل البيوت المحبطة ، التواقد الخشبية المتربة ، لحظة من النهار الراحل تبعث صورا وروائح وأصواتا بعيدة نأى طويلا عن الذكرة ، ينقل قناوى ثقل جسمه من ساق إلى أخرى ، يرفع عويس وجهه إنه عجوز ،

---

---

---

بهر رأسه هزتين موجزتين ، سريعتين ، صامتتين ..  
« طيب يا سعادة الملازم .. اخترت الوطن .. » .  
أول مارس ١٩٧٦

# مجهود حربى

〈 ٢٢٥ 〉

جمال الغيطان

---

## تاریخ عام

عرف أهالى حى الأربعين وحى زرب ، خضر أبو عطية بائعا للشاي ، يقف أمام النصبة الخشبية أو يتحرك بين الدكاكين والورش حاملا صينية كبيرة عليها الأكواب والفناجين ، بدأ عمله ومعه براد شاي أزرق وموقد ماركة بريموس ، ودستة أكواب زجاجية ، بعد زواجه من السيدة شمعة تكون بمساعدة بعض الصالحين ، منهم الشيخ ذكرييا تاجر الجيش القديم الذى عطف على خضر لوجه الله اذ لم ينقطع عن رؤيته فجر

---

---

كل يوم في مسجد سيدى الغريب أيام الشتاء وأيام الصيف ، عندما أتم بكر ابن الوحيد لحضر الرابعة أتم سعدون النجار عمل نصبة من الخشب ، مستطيلة ، الجزء الأسفل منها بضفتين ، يضع داخله الشاي والسكر والأصناف الأخرى التي بدأ في إعدادها ، الكاكاو ، القرفة ، أما الجزء الأعلى فمبطن بالصفائح والقصدير الذى يبعد لهب المقد عن الجسم الخشبي ، يتسع لثلاثة مواد ، اثنان من الحجم الكبير والثالث صغير يعمل بالكحول لاعداد فناجين القهوة ، أعلى امتدت ثلاثة رفوف ، اثنان عليها اكواب زجاجية مضلعة الحواف ، والثالث عليه فناجين قهوة ، اشتهر شاي عم خضر في حى الأربعين ، حرص على تناوله اصحاب الدكاكين الصغيرة ، مطاعم الفول والطعمية والسمك المشوى ، ثم وقع حادث هام عندما قرر الحاج الدمياطى صاحب وكالة جبال السفن شرب الشاي من خضر ، بدلاً من مقهى القابطى ، قيل في سبب ذلك انه عندما شرب كوب الشاي صباح ذلك اليوم وجده مغليا ، عندئذ اقترح عليه وكيل اعماله تجربة شاي خضر الطازج دائما ، الحال من التفل ، ابدى الحاج دهشة لوجود مثل ذلك الاخلاص في هذا الزمن الردىء الذى لا يعرف الانسان كيف يشرب كوبا من الشاي فيه ، ادى هذا الى تحول جميع العاملين بالورشة عن مقهى القابطى الى هذا عبئا على خضر ، الوكالة تستوعب شاي مقهى بأكمله حاول القابطى مضايقة خضر ، لكن

---

بعض الأهالى واجهه بحزم ، قالوا له ان الأرزاق من عند الله ، اشتري خضر اكوابا جديدة ، كما اتقن تحميجه بن افضى إليه بسرها رجل مغرب وتقضى بإضافة حبهان وقرنفل وجوزة الطيب بمقادير معينة مما حبب هواة القهوة كثيرا ، ازدادت ساعات عمله من السادسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، كما اتفق مع عبده النجار على صناعة دكة خشبيه تتسع بجلوس خمسة أشخاص ، حتى يستقبل زبائنه من سائقى عربات النقل ، والتابسيات ، والعابرين ، يشربون الشاي الذى عرف به وتفوح منه رائحة ذرات نعناع جاف أخضر يشره بمهارة فوق الشاي ، عندما أتم ابنه بكر السادسة نصحه بعض الجيران بتدرية على العمل معه ، يساعده ، يوصل له الطلبات ، لكنه ذهب به إلى مدرسة الأربعين\* الابتدائية تقدم بطلبين ، الأول يرجو فيه الحق ابنه بالمرحلة الابتدائية لبلوغه السن القانونية ، والثانى كتبه بعد نصيحة من باشكاتب المدرسة إبراهيم أفندي ، ويطلب فيه اعفاء ابنه من رسوم القيد وقدرها جنيهها ونصف جنيه ، ارفق شهادة ثبت عبوزه ، ورجا الباشكاتب الا يشعر بكر بأى علاقة تشير الى تقديمه تلك الشهادة ، استجواب الرجل الطيب ، ونادى اسم بكر بصوت عال من كشف الطلبه الذين سددوا المصاريف ايقن خضر أن كل ما يحيطه من رزق نصيب ولده ، مكافأه له على حسن نيته وصبره على تعليم بكر ، خاصة أن دعواته أثمرت ، لم يعرف عن بكر هوایته للعب الكرة ، او

---

ركوب الدرجات ، أو الذهاب إلى السينما ، كتب اسمه في لوحة الشرف مرات ، رضى عنه المدرسوں ، أهداء الناظر قلماً ومسطرة ، في الليل يسهر ، أمام الطلبة منحنياً ، لا ينام الا بعد الحاجة حتى يقوم مستر يسهر ، وعندما انهى بكر دراسته الاعدادية حوالي عام ١٩٥٩ ، تذكر من النوم ، وعندما انهى بكر دراسته الاعدادية حوالي عام ١٩٥٩ ، تذكر خضر من دفع جنيه واربعين قرشاً إلى أبي غزاله الكهربائي مقابل مدخله إلى داخل الغرفة يضيء مصباحاً يذاكر عليه بكر بدلاً من لمبه الغاز . استوثق خضر أن التيار الكهربائي غير مسروق من أحد ، أو من أسلاك الحكومة ، كما اتخذ إجراء آخر ل توفير ظروف أفضل لبكر منها نومه إلى جوار أمرأته فوق الأرض ، ونوم بكر فوق السرير حاول أيضاً تجنب ولده ما تصوره أنه حرج ، لم يتزدد كثيراً على المدرسة ، حتى لا يتضايق بكر يوماً إذا ما تشارج مع زملائه وقالوا له .. يا ابن القهوجي .. مع إن كلمة قهوجي تطلق عليه تجاوزاً لعدم عمله بمقهي ، كما تخلى منذ سنوات عن حمله بامتلاكه مقهى لارتفاع التكاليف .

---

## حقائق لم يعرفها اقرب الناس

اُقل خضر هم دائم ، هو توفير مصروف البيت ، أشد ما كرهه مد اليه إلى الغير ، لكن الرعب يمتلكه إذ يتصور عودة بكر إلى البيت بدون أن يجد باذنجاناً مقليناً أو طبقاً من الفول أو بيضاً ، تعامل خضر مع ثلاثة أشخاص السنى الخباز ، واباظه العجمى ، وعبد الهادى البقال ، كثيراً ما توقف ليتأمل المارة ، اعتاد معارفه صمته فلم يتمكن أحد ما يداريه ، ينقبض قلبه إذ يرى البعض يحملون خضاراً ولحماً ، إذ تجتمع القروش في يده يطلب من بناويطي الحلاق الانتباه إلى النسبة ، يهدى نار المقاد ، يمسك طرف جلبابه ، يسرع إلى البيت ، حدث أن عرضت امرأته الاستدانة من السست عطيات لكنه آبى ، ربما تشاجرت في أي لحظة عندئذ تعايرها بصوت عالٍ ، بماذا سيشعر بكر ، حرص أيضاً ألا يلتجأ إلى اللحم الحى ، ويشمل السكر والشاي أو المبالغ المخصصة لشرائهما .

من الحقائق المجهولة أن « خضر » جلأ يوماً إلى الشيخ زكرياً طلب اعانته جلباباً صوفياً ليوم واحد ، دعته المدرسة لحضور مجلس الآباء ، لم

---

---

---

يفكر أبدا في دعوة كهذه ، لا يمتلك جلبابا يصلح ، ذهابه الى المدرسة أقصى على دفعه المصاريق ، يخشى لو أعطاها لبكر أن ينطفئها أحد الأشرار ، لم يلتقي الا بعل افندى سكرتير المدرسة الذى يحيىء بعد الظهر ، يجلسان فوق الدكة ، يقدم اليه الشاي مجانا ، يتبدلان الاخبار ، يتحدثان عن تعديلات تنوی مصلحة التنظيم اجراءها . عن أعادة رصف الطريق المؤدية الى الميناء ، هل سيتم ذلك قبل موسم الحج القادم ؟ يتحدثان عن الأجانب الكثرين المقيمين بفندق بلير ، لم يعرف بكر بأمر هذه الزيارات ، أصغى الشيخ زكريا ، قال إن لديه قال أن جلبابا لم يرتديه الا مرة واحدة ، مد يده الى صدیرته أخرج محفظة الجلدية المرصعة بخصوص الألومنيوم ، مد الى خضر جنبهين ، أنه يعلم ما مستنه اليه هذه الاجتماعات ، سيطّلبون منه تبرعا للمدرسة ، قال انه سيسترد كل ما قدمه بعد أن يعمل بكر ، فكر خضر أن يميل ليقبل يد الرجل .

ان معظم الثياب التي ارتدتها خضر تلقاها كهبات ، في بيته الآن مقطف كبير يمتلىء بقمصان قديمة ، بنطلونات ، جلاليب كما يوجد ربطه ثياب عسكرية مربوطة بحزام جلدي عريض (قايش) . تخص جنديا نوبيا اسمه مرجان ، طلب منه أن يحفظها عنده يوم ١٩ فبراير ١٩٧٠ . خرج الى سيناء في دورية ولم يرجع . اعتبر مفقودا حتى الآن .

---

---

ان حقائق عديدة بقيت مجهولة ، معظم مشاويه قطعها م شيئاً حتى يوفر ثمن التذكرة ، لم يمارس الجنس حتى الزواج ولا بعد رحيل امرأته الأبدى ، لم يتطلع الى امرأة أخرى ، جاع يوماً قبل زواجه وأثناء صعوده سقالات البناء المنصوبة حول عمارة جديدة حاملاً صينية الشاي ، أوشك على السقوط لولا أنهم لحقوه ، أنواع الطعام التي أكلها لم تتعذر أصنافاً محدودة ، الفول ، الطعمية ، العدس ، البازنجان المقللي واللفلف الرومي ، عندما يفرق نصيب امرأته وابنه من اللحم يأخذ لنفسه أقل القطع حجماً ، السمية أو ذات العرق المستعصية على المضغ ، لم يدفع قرشين ثمناً لزجاجة مياه غازية ، أحياناً ترى خلف ذئنه سيجارة لكنه لم يدفع ثمن واحدة أبداً ، في أحد الأيام البعيدة أعطاهم مقاول صعيدي علبة كاملة ماركة « هوليود ». لم يفك غلافها السيلوفان ، إنما باعها الى عبد الهادى البقال بأقل من ثمنها الحقيقي بثلاثة قروش .

### التهجير :

عندما طلب من خضر أن يملاً استثمارات التهجير ، قال للموظف المختص إنه لم يعد له بلدة يمكنه اللجوء إليها ، إنه يعيش بمفرده في غرفة واحدة ، لا يضر إنساناً ، لا يخاف عليه أحد ، بل يخدم الجنود الذين ينتقلون من موقع إلى آخر عبر المدينة ، يجدون عنده كوباً من الشاي

---

الساخن ، لونزل الجندي ولم يجد من يقدم إليه كوب شاي سيفتم ويحزن لمنظر البيوت المهجورة والمقاهي المغلقة ، قال إن النسبة لا تختل حينما وطوال عمره لم يحرر له محضر شغل الطريق العام أو التسبب في زحام ، هذا قبل اضطراب الأحوال ، عندما كانت السويس تشغى بالخلق ، لم يقل خضر للموظف إن ابنه طبيب بالقاهرة ، ويمكن أن يساعده في الحصول على تصريح ، لم يقل أنه شخص ثالثين كوبا من الشاي يقدمها إلى الجنود ، لا يتناقضى ثمنها ، داعيه الجيران الباقيون وأطلقوا عليها ، « مجهد حرب » ، فابتسم قائلا : « ما أنا حيآن كلها مجهد حرب ، جند عدیدون يفاجأون برفضه تقاضى مليما واحدا ، اعتاد جلوسهم حوله ، في البداية لم يبادلهم احداً طويلاً كعادته ، إنما يخدمهم بنشاط عجيب ، يقدم إليهم الصينية بيديه المحتarin ، إذ يلاحظ بعضهم ذلك يقومون ، يتناولون الأكواب قبل وصوله إليهم ، يبتسم اذ يصفعى إلى مداعباتهم الشابة ، في ذلك اليوم تحدث إلى بعضهم ، قال أنهم يريدون تهجيره ، بعد هذا العمر كله ، أن يفارق سيدي الغريب ، قال أحد الجنود انهم سيفتقدون شایه الطيب ، نظر إليه معاطبا ، كيف يفكر هذا الصعيدي الجدع في مقارقه للسويس ؟ لا يستطيع تخيل نفسه مستيقظاً في مكان آخر ، لا يرى النسبة كل صباح ، يفرغ قوالب السكر وأكياس الشاي في الأواني ، صحيح أن أحباباً كثرين هجروا ، في لحظة خليل اليه أن مقاصدا

---

هائلاً يقطع حياة السويس جزءاً ، جزءاً ، ويرميها إلى المجهول . أحباب آخرون رحلوا أثناء القصف ، رحم الله الشيخ ذكرياً الذي ذبح بشظية بعد حريق الزيتية بيومين ، بدأت لحظات صمته تطول ، صحيح أنه لم يتحدث كثيراً أثناء عمله ، لكن وجودهم لم يفارقه ، في الدكاكين ، الوكالات ، الورش ، وقت المصاري وجلوس الزبائن فوق الدكة ، وجردليه الذي يرشه بحدر وبطء حول النسبة ، حركة الشارع ، إن معظم الدكاكين والوكالات مغلقة الآن ، أبواب المنازل مربوطة بسلسل حديدية غليظة ، مع ماض الأيام اعتاد رواده الجدد بارهاقهم البادي ، وأحاديثهم المرتفعة ، وجلستهم المميزة إذ يطرقون ، يستلون ذقونهم إلى راحات أيديهم ، يسرحون في الفراغ ، بنادقهم ورشاشاتهم بين سيقانهم كأطفال صغار ، أعمارهم المتقاربة تزيد عن عمر بكر عاماً أو تنقص عامين ، إذا رأى أحدهم قادماً يقوم نشيطاً ، يولي وجهه ناحية النسبة ، يدفع كباس المقد ، يكشف غطاء البراد الأزرق ، يغسل الأكواب مع أنه سبق أن غسلها أكثر من مرة يتبادلون أحاديثهم الخاصة ، يشارك بالاستماع ، عندما يقدم إلى كل منهم كوب الشاي يبرز من سطحه عود نعناع أخضر ، يصغى إلى آلة ارتياح بعد الرشفة الأولى ، « الله يا عم خضر » ، عندئذ يدير وجهه الصامت إليهم ، يتأمل الوجوه التي تشبه بعض ملامحها ابنه بكر ، يرق قلبه ، عبر السنين لم يجلس ساعة كاملة إلى بكر ، يعود في المساء

---

ليجده نائماً ، ويقوم مبكراً في الفجر فيمد الغطاء على جسد ابنه أو يعدل وضع الوسادة تحت رأسه ، يلفظ البسمة ، ينصرف اطمئن إلى تفوقه في المدرسة ، وعناية المرحومة بولدها ، عندما انتقل للمدرسة بالقاهرة لم يسمع عنه خبراً يضايقه ، في الأجازة لم يسمح له بالاقتراب من النسبة أو مساعدته ، لم يعرف شيئاً عن أصحاب ابنه ، الأماكن التي يرتادها ، لم يجعله لكنه تمنى أن يريحه من هذه الوقفة التي انهكت عمره ، اقطع ثلاثة جنيهات من مكافأة التفوق ، صار يرسلها شهرياً مع سائق عربة نقل سويسى ، يقوم السائق باعطاء النقود إلى امرأته التي توصلهم إلى أم بكر ، عندما عرف خضر بذلك أول شهر ، تمنى لو أرسل إلى ابنه يطلب منه إلا يفعل ، لكنه منذ فترة يشعر بتبغ ، الشاي غال والسكر ، دعاه طرابلا في مسجد سيدى الغريب ، لكنه بقى بعيداً بشكل ما عن ابنه بكر ، خلال فترات الدراسة فارغة أو ممتلئة ، لا يستطيع إغلاق النسبة يوماً واحداً ، إنه في حاجة لكل قرش يأتيه حتى يأتي بأحسن الطعام لبكر أثناء بقائه معهم ، حتى لو تفرغ له ، كيف سي Mishian معاً ، لبكر أصحابه ، ورحلاته التي لا يعرف عنها شيئاً ، لا يعني مضايقتها عصر أحد الأيام فوجيء بابنه يمر أمام النسبة ، تلاقت عيونهما ، رفع خضر يده بالتحية ، « تفضل يا بك » ، نظر إليه بكر بدهشة ، لم يعلق ، انقبض قلب خضر ، نفس ايقاع كلماته الذي يخاطب به الموظفين المحترمين ، بعد رحيل المرحومة

وافتتاح بكر لعيادته مضت أيام عديدة بدون أن يلتقيا ، أول كل شهر تصله حواله من بكر، يستبدلها من مكتب بريد الأربعين ، يقول له الموظف « ربنا يخليله لك » ، تلك الجنيهات العشرة ما تبقى من بكر ، في لحظات اقتنع بأن هذا طبيعي ، أن بكر أصبح طبيبا ، له زملاء محترمون وزميلات يرتدن المعاطف البيضاء ، ويعلقن السماعات الطبية ، كما أن شهرته واستقامته ذاتعتان ، الناس تتواجد على عيادته بالدرب الأحمر جعل قيمة الكشف عشرة قروش في وقت ارتفع فيه سعر كل شيء ، ليس من المعقول أن يشغل نفسه بأمور أبيه العجوز ، ثم أنه يقوم بالواجب ، لم ينسه شهرا واحدا ، إن صحته تساعده على الوقوف أمام النصبة والحديث إلى هؤلاء الجنود ، تسأله كثيرا ، لماذا لم يتكلم يوما مع بكر كما يتحدث اليهم ؟ مرجان النبوي قبل اختفائه حدثه عن خطيبته وعن هموه في جمع المهر ، وتخييله للبيت ، ونفقات العرس ، هل أسر إليه بكر بأشواقه تجاه فتاة أحبهما ، هل حدثه عن زميلاته اللاتي زاملهن في الجامعة ؟ رجب جندي المدفعية وصف له الطابق الثاني الذي شرع والده في بنائه ، عندما ينصرف كل مرة يطلب من عم خضر أن يدعوه له ، أن يرضى عنه ، عندما يبدأ قصف المدفعية المتبدال يرفع يديه طالبا من الله حماية رجب ، قصف المدفعية يعني عنده رجب ، إذا أغارت الطائرات على الواقع خارج المدينة فهي تقصد رجب ، كثيرا ما يلتفت إلى بعض زبائنه الذين يصمتون فجأة

عند بدء الانفجارات يومي ء قائلًا « مدفع رجب اشتغل » ، تقوس ملامحه  
اذ يصغى الى شكوى منصور عامل المطبعة والمجند في سلاح المهندسين ،  
صاحب المطبعة رفض تقديم أي مساعدة إليه بعد تجنيده مع أنه خدمة سبع  
سنوات ، وعندما نزل أول أجازة رأى عاملا آخر مكانه ، أدركته دهشة ،  
يصف خضر الرجل بأنه حرامي ولن يبارك الله له في ماله أو مطبعته ،  
يتحدث بصيغة الجمع « نحن نجاهد ومن يضرنا لن يسامحه الله أبداً » ،  
يبدو منصور وكأنه قطعة منه ، ما لحقه من ضرر حرق به أيضاً ، إنه يسأل  
محمد الساعات عن والدته قبل أن يقدم اليه الشاي ، يقول محمود إن  
الضبغط يرتفع أحيانا ولكن السكر يتزايد ولا منفذ منه الا الرجيم وهذا  
يحتاج الى نقود ، طبيب المستشفى في لا يراعي حاله عندما يقول لأمه ...  
كلى ربع فرخة مسلوقة يوميا و ... العين بصيرة واليد قصيرة ، يصمت  
قليلا ، يتساءل ، لماذا أصيبت أمه بالسكر وهو مرض يقولون إنه لا يصيب  
إلا الأغنياء ، قبل ابتعاد محمود يدخل ذراعه في السير الجلدي الذي يشد  
البندقية الى كتفه يقول برجاء عظيم « والنبي أدع لها في سيدي الغريب  
يا عم خضر » ، في أحد الأيام بذا ساها ، انتقل خضر الى جواره ، أحاط  
كتفيه بذراعه ، وهذا لم يفعله أبدا مع بكر ، قال محمود إنه وجده منهكة  
في أجزاءه الأخيرة ، لكنها تماستك ، نزلت السوق ، اشتربت خضارا  
وطبخت له ، لم تشک صداعا أو وجعا ، في الليل سهرت تغسل ثيابه ،

قال محمود إنه مجلس ساعة بأكملها إلى أمه ، لا ينطقان حرفا ، لكن كلام منها يدرك تماماً أحوال الآخر ، ما يفكرون فيه ، ما ينبغي قوله أو اخفاوه ، قال إن الوقت لا يتسع لأطباء المستشفى ، قال محمود أنه يعرف طبيباً ابن حلال في مصر ، يحب الفقير ، قال محمود معاذنا ، هل نسيت يا عاصم خضر ، أمي في الإسكندرية وطبيبك في مصر ؟ ، في تلك الأيام بدأ خضر وكأنه يعيش المدينة لأول مرة ، هجرة جiran العمر ومجيء هؤلاء الشباب بدل كل شيء ، خلال الفترات القصيرة التي قضوها معه ، ارتاح لأول مرة بعد عمر طويل من وقوته المستمرة أمام النسبة ، في لقاءات سريعة عرف عنهم أكثر مما عرفه عن الأسطنى سيد الخالق الذيجاوره سنوات ، يمضي محمود أو حسين أو سعيد جندي المظللات ولا يدري ، هل سيلتقي بهم مرة أخرى أو لا ؟ يبدون وكأنهم محظوظون على أن يتربكون لديه أكبر قدر من تفاصيل حياتهم وحاجاتهم الصغرى ، أثناء مرور بعضهم السريع بالسيارة يلقون اليه بخطابات يطلبون منه أن يرسلها من مكتب البريد ، جاءه مرجان يوماً بأكثر من عشرين خطابا ، كل مظروف لصق عليه طابع البريد ، بدأ مرجان متوجلاً ، وحدته ستتكلف بهمزة ربياً غابوا فيها زماناً ، وزملاؤه لن يستطيعوا النزول في أجازة أو المرور العابر بالمدينة ، رجاعهم خضر أن يرسل هذه الخطابات في نفس اليوم من مكتب البريد الرئيسي ، عد المظاريف ، أحضر جريدة قدية لهم بها ، مضى عبر حواري زرب ،

---

إلى شارع الشهداء ، عوت صفارات إنذار الطيران ، لم يتوقف ، ترك النصبة مفتوحة ، فقط هدا الماقد ، طلب من موظف البريد أن يخصي المظاريف ، انحنى برأسه ينظر عبر الشباك الضيق يحاول متابعة العد ، عندما خرج من المكتب ابتل قلبه برضى ، لم يتمكن كثيراً بالفجأة مكتوم بعيد ، ولم يتظر انطلاق صفاراة الأمان ، إذ إن السويس لم تعرفها في تلك الأيام ؟ تدوى صفارات متقطعة فقط ، أما الأمان المتصل فلا محل له في المدينة أوفي إيقاع حياتها ، أثناء اقترابه من النصبة حياة أربعة جنود وضابط شاب برتبة ملازم ، ابتسם ، قال تفضلوا ... صاح أحدهم .. مجاهد حربى ؟ ، قال خضر مشيراً بأصبعه إلى عينيه .. « من دي .. ومن دي » ، لا يذكر انهم مرروا به ، أو جلسوا عنده ، لكنه اتتس بهم ، أضحكوه برحهم ، اعتذر إليهم عن عدم وجود نعناع وقال انه سيمضي إلى الجنائن ليشتري نعناعاً أخضر ، في عصر اليوم مر به هريلدى جندي البحرية الصعيدي ، لا يراه الا أثناء نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، ربما لا يبعد موقعه ، قدم إليه لفافة صغيرة ، وقال ان امه ارسلتها خصيصاً إلى خضر عندما حكى لها عنه ، صاح خضر عندما رأى هريلدى منتصراً ، تفضل شاي .. ابتسם هريلدى ، سياق إليه بعد ستة وعشرين يوماً عند عودته إلى بلدته اذا قسم له الأجل ، قاطعة خضر « باذن الله » ، سيشرب كوبين ، إحداهما مجاهد حربى ، والأخر على حسابه ، في الليل يصغى

---

حضر إلى السويس ، إلى الطلقات المتقطعة ، سنين طويلة قضتها أمام النسبة لم يجاور مخلوقا ، صحيح أن أصحاب الدكاكين أحبوه وأثنوا على شايته ، وتصدوا له من حاول مضاييقته ، لكنه لا يذكر أنه تبادل معهم الحديث يوماً ملده دقائق ، بل انه خلال السنين العشر الأخيرة وصل إلى معرفة كاملة بأمزجتهم وأحوالهم ، يجيئه صبي المعلم فسدق ، يعرف أن المطلوب شاي على ماء أبيض مغلى ، يصبح الأسطري سيد الحلاق ، لا يوماً حتى برأسه ، فتجان قهوة مضبوطة من البن المحروج ، أثناء توصيله الطلبات يزعق عليه هذا أو ذاك ، واحد شاي يا عم خضر ، واحد قهوة يا عم خضر ، جنزبيل يا عم خضر ، يعرف لهن بعد الشاي الخفيف ولن يضيف قدراً من اللبن ، حتى كمية الجنزبيل بدأ يشتريها طبقاً لحاجة زبائنه عنده أربعة يشربون الجنزبيل يوميا ، عرف عنه صمته ، سعيه الهادئ في الطريق ، استجابته السريعة لما يطلب منه ، لم يحدث إلا نادراً أن قال له البعض «تأخرت يا خضر» ، لكنه لم يقف أمام دكان ، لم يجلس على مقعد في الوكالة ، لم يتحاور ، لم يشك إلهي أحد هم ، لم يصفع ، في الطريق تصل إلى أذنيه جلة عارضة يقولها أحد زبائنه يعرف أنه المقصود بها .. «هل ترى هذا .. انه يربى طيبا ..» ، ربما اضطربت خطاه خجلاً لكنه لا يتوقف ليعلق ، مع مرجان وكمال وسعيد ، معهم ضحك ، وتحدث ، وجلس على الدكة التي أعدها لراحة الناس ولم يقعد عليها يوما ، لأول مرة

متد أيد لتساعده في عمل المشاريب ويتقبل هذا راضيا ، بل إنه ترك لهم « العدة » كلها يوما وجلس يتفرج عليهم ، عندئذ قدم له محمود الاسكندران كوبا من الشاي وقال ، أنت اليوم زبون وهذا الكوب مجهود حربي ، لم يفكر في الاستعانت بشخص ما ، راودته الفكرة أثناء دراسة بكر الثانوية ، أن يستخدم صبيا في توصيل الطلبات ويتفرغ للعمل أمام النسبة ، لكنه تساءل .. كم سأعطيه .. خمسة عشر قرشا أو ريارلا ؟ بكر أولى به ، لا تحتمل قليلا ، إنه يرى كل شيء قضى بجواره سنوات لأول مرة ورواده الجدد حوله ، كيف سيحضى الوقت عليه في المиграة ؟ بعد عمر قضاه واقفا هل يتحول إلى قعيد يتناقض اعنة تهجر ؟ يعود إلى صحته ، تكف يده عن اذابة السكر وملء الأكواب ؟ عندما ألح عليه الموظف ، ضايقه ، اخبار سالم المزارع من كفر الشيخ وجندى المشاه ، وفكري المثلث الذى لا يكفى عن تردید .. « سمعت آخر نكتة ؟ » والشاويش عوض المطوع ، قال انه سيذهب إلى مصر ليكلم بعض ذوى التفوذ حتى يتسطوا له .. قال عوض ، وأين ستشرب شايك ؟ مد خضر يده مشيرا إلى النسبة ، قال ، عندكم السكر والشاي ، يكفى حتى أرجع ، ضحك فكري .. النسبة كلها ستصبح مجهودا حربيا . :

---

### حوادث عارضة :

أثناء جلوسه بيده العيادة مرتدياً جلباباً مكتوباً ، تذكر دخوله الليل على بكر ، تأمله وجهه النائم ، كان شخص روى له ما جرى ، سنوات كثيرة سرت ، قال لنفسه بكر ابن حلال ولا ينسان ، تابع دخول المرضى وخروجهم ، يئز الجرس أزيزاً مختبراً فيقوم التموجي ، امرأة ترتدي ملائكة لف ، تحمل طفلاً ، تدعى للطبيب ابن الناس ، تدرك خضر راحة ، يود مقابلة بكر بسرعة ، لو قال للتموجي .. أنا .. سيدخله فوراً ، ربما خرج بكر بنفسه مرتدياً معطفه الأبيض ، نظارته ذات الإطار المعدني ، خضر يتأمل غرفة انتظار الرجال ، حجرة انتظار الحريم ، الحاجز الأبيض ، منضدة مستديرة فوقها مجلات عدائية وصحف ، لا يعرف متى استأجر بكر هذه الشقة ؟ ماذا قال للتموجي عندما اتفق معه على العمل ؟ ماذا يقول أبناء الحى عن ابنه ؟ كيف يحييهم عند وصوله ، يقولون بارياد .. الدكتور وصل .. شابة قصيرة القامة تدخل من الباب ، تختزن كتاباً ، تسلل من كتفها حقيبة قماش ، تسمى للتموجي ، تقطع الصالة بسرعة ، يقطب خضر عينيه ، عطر خفيف سيع في الجو بعد عبورها الوائق السريع ، هل جاء في وقت غير مناسب ؟ لم تنتظر ، لحظ استياء على وجوه المترقبين ، سمع امرأة تقول : « اصلها

---

زميلة .. ، من هذه ؟ تعرف عن بكر أكثر مما يعرف ، فرح ممزوج  
بخجل يدركه ، لماذا يتخيّل بكر صغيراً دائمًا ؟

رجب محمود ..

يصبح التموجي ، للحظة لم يتبه ،

رجب محمود ..

يتفضّل واقفاً ، أبدى بكر دهشة صادقة ، احتاج ، كيف يدخل باسم  
يجهل صاحبه وهو صاحب الفضل على كنْ هذه العيادة ؟ لم يدرك كيف  
يحيي خاصّة عندما انتبه إلى وجود الفتاة ، ابتسم بكر ..

أبي ..

خطت نحوه ..

أهلًا عي ..

نظرتها إلى بكر موجزة ، اعتاد كل منها الآخر حتى ليفهمها بعضها  
بدون الفاظ مسموعة ..

الدكتورة صفاء زمبلق ..

أو مات ، مضت تزيّع الستائر المسدلة على النافذة العريضة ، عادت  
ترتب بعض الكتب ، فتحت درجاً واوشك كفها أن يلامس بكر عندما

استدارت وراء المكتب قليلاً ، تناولت قلماً ، تعرف مواضع الأشياء كلها ، جلست فوق مقعد من الصاج الأبيض ، بدأت تكتب ، أدرك خضر حينها إلى المرحومة ، تذكرها إذ تفتح عينيها بمجرد استيقاظه ، كأنها تدرك بحواسها متى يتنهى نومه ، تقوم ، تسبقه إلى إعداد الشاي والافطار ، إلى يديها إذ تدلكان ظهره عندما يش��و وجعلها شبيه وفته اليومية الطويلة ، سأله بكر عن رجب محمود وهل يعرف شخصاً بهذا الاسم ؟ قال خضر إنه جندي بالمدفعية ، صمت ، هل ارتفع صوته أكثر مما يجب ؟ أوشك أن يقول ، رجب يشرب عندي من شاي المجهود الحربي ، ليمسك لسانه ، قال بكر لصفاء إن والده يرفض مغادرة السويس .. أطرق خضر ، نظرات صفاء الجريئة نحوه ، قال إنهم يريدون منه مغادرة السويس .. يريدون تهجيره ، انه يرجو من بكر وساطة ما ليقى ، قال خضر لنفسه إن طلبه الوساطة أمام صفاء سيرفع قدر بكر في عينيها ، فوجيء بابنه يقول ..

أنت يجب أن تبقى معى ..

كيف ؟ لم يدرك كيف ؟ هل يناقشه أمام البنت ؟ والسويس ؟ هل من المناسب أن يتتحدث عن النسبة ، وعن الشاي ، وعن الزبائن الذين أحبوه ، وائتمنه كل منهم على حاجة ما أو سر خاص ، أبدى بكر اصراراً وقال إنه يجب أن يستريح ، في الأيام التالية طاف خضر بالأولياء ، زار

الحسين ، صلى فيه المغرب ، والعشاء ، دعا أمام المرقد أن ي benign كل من يعرفهم أو لا يعرفهم ، بعد أن أغلق المسجد أبوابه دار حوله ، أو شك أن مجلس فوق الرصيف بجوار بعض الفلاحين ، تذكر أنه الآن في القاهرة ، ربما تصادف مرور بكر ، في ظهيرة أحد الأيام جلس فوق دكة مجاورة لنسبة شاي بالقرب من سيدى الشعراوى ، سأله صاحبها عن سعر الكوب ، كم يبيع يوميا ، عندما لاحظ تساؤلا صامتا قال انه صاحب نصبه شاي في السويس بعكس ما توقع أبدى الرجل تحفظا زائدا ، سأله بخفاء ، هل هاجرت من السويس ؟ هل ستفتح نصبة هنا في مصر ؟ ، في البيت يرى أرهاق بكر وتعبه ، أثناء تناولها الشاي ، يسأل نفسه ، هل رشف الشاي بصوت مسموع ، لم يتبدل أحداًث طويلة في الليل التي يعود خلالها متأنرا ، أثناء النوم يتقلب بحذر شديد ، ربما تسبب طقطقة السرير ازعاجاً لبكر الذي ينام في الحجرة المجاورة ، يستيقظ كثيراً ليأسئل نفسه ، هل ارتفع شخيره ؟ في الصباح يكتم سعالا ، يدو النهار المقليل غربا ، ماذَا سيفعل ، ماذَا سيقوم به بعد خروج بكر ؟ يدور حول نفسه أثناء مشيه في الطرقات ، يتأمل وجوه المارة ، يتبع ايقاع المشي السريع للناس ، كأنه يرتدى ثوباً به رائحة عرق الغير ، افقد الترقب الليلي اذتهدر مدفعة رجب طويلا ، تدرك المدينة أن رجالاً عبروا في دروية إلى الشرق ، في معظم الأحوال لا ينطئون ، يصدر البلاغ ، يردد الراديو ، عبرت قوة من رجالنا

---

---

شمال بور توفيق .. أو جنوب حوض الدرس قال مرجان أنه يود العبور معهم ، قال مرجان ضاحكا قبل إختفائه .. سيحدث يوما يا عم خضر .. تمنى لو عاش حتى يرى هذا اليوم ، قال إنه سيحمل كل ماقر النسبة ويزعجه هناك على الرجال ، كل ما لديه سيصبح مجهودا حريرا ، ماذا لو جرى ذلك أثناء بقائه هنا ، بين كتب بكر ، وأوراقه ، وأدراجه المقلقة ، جاكتاته الأنثقة ، ماذا لو ذهب الجدعان كلهم إلى الشرق ، وهو هنا لا يدرى شيئا عن أرقام التليفونات التي يديريها بكر ؟ المواصلات التي يركبها ، أصدقائه ؟

### حوادث تمهدية

لم يقل خضر لأحد كيف حصل على تصريح بالإقامة لم يتغير شيء سوى موقع النسبة ، نقلها رجب وثبت وكمال أثناء غيابه من تحت الرصيف إلى مدخل البيت خوفا من عربات النقل المسرعة ، لم يغير موقع شرفته ، باستطاعته أن يأوي إلى أي شقة في البيت الذي خلا تماما ، لم ينزل إلى الطوابق السفل ، أحيانا يستضيف أحد الجنود الذين لم يلحقوا بأخر أوتوبيس ، قد يترك الجندي جزءا من متعاه ، في حجرته بطاطين رمادية ، حقائب سفر ، سترات مدنية ، يضحك فكري قائلًا إن سر عدم رجب بائع ، جميع البيوت المحيطة به إما تهدمت أو جرحتها الشظايا ، أما البيت الذي يسكنه فلم يمس ، خلال تلك الشهور علم الجنود بابنه الطبيب ،

---

---

يوما سأله لطفى المياوى مداعبا «الولد يقوم بالواجب يا عم خضر» ، نظر إليه خضر معتابا ، قال إن بكر ابن حلال ، يراعيه ، يرسل إليه ما يكفيه ، عندما زاره في مصر وأقام عنده ترك له غرفته لبئام بها ، مضى معه إلى حديقة الحيوانات ، والأولئك ، أغلى عيادته ليقيم معه ، يستفسر عن أدق أحواله ، يسكت خضر قليلا ، يطلب من الله أن يسامحه ، هل من المعقول أن يشوه سمعة بكر بسانه؟ ، ثم يسأل محدثه ، ألم يأن الفرج قريبا ، والفرج في لغته ولغة الرجال يعني بدء الحرب ، إن كثيرا من الجنود يحيونه ، «والله عايزين نخلص يا عم خضر .. ربنا يسهلها» .

### مشهد آخر

### الساعة ٦٠٠ ، صباح الأحد ٧ أكتوبر

طوال الليل لم ينم ، لم يغمض له جفن ، ليس بسبب الانفجارات التي لم تهدأ ولم يعهد مثلها من قبل ، نزل من الحجرة ، أصعد إلى الراديو مع بعض رجال المقاومة ، لكن نبضا خفيا بدأ يسرى في المدينة ، كأنها رحم يستقبل أول إشارات الجنين ، نبض يوحى بكل ما يتم في الظلام ، في الشرق ، قال للرجال إنه مع النهار لن يبقى دقيقة واحدة في السويس ، قال أنه سيذهب إلى الشرق وراء الجدعان موفيا نذرا قطعة على نفسه أمام عزيز غال اسمه مرجان اختفى منذ ثلاث سنوات .

---

---

---

مع أول ضوء احتوى النسبة بعينيه ، في فمه مذاق صباحي جديد ، انفجارات متتابعة ، متالية ، من كل الأنواع ، صاح رجل في مكان قريب :

« والله زمن يا صالح . . . » .

هدير بعيد ، يتذكر بسرعة ذهابه إلى بكر أثناء امتحان الشهادة الاعدادية حاملا لفافة ورق بها رغيف وقطيعي لحم ليأكلها في الفسحة الفاصلة بين فترات الامتحان ، تناول الجردول الفارغ المخصص لغسيل الأكواب ، وضع موقد البريموس رفيق العمر ، هزه قليلا ، تأكد من امتلاءه بالكيريسين ، أثناء اشتعاله يدرك الخلل الطارئ من صوت النيران ، لف جميع الأكواب الزجاجية في جريدة قديمة ، كل السكر ، كل الشاي ، لم ينس حتى أوراق التناعن الحافة ، أين الملاعق ، لن يدع أحدا يلقي السكر ، لا وقت لديهم .

قطع شوارع الأربعين مسرعا في اتجاه المهاويس ، يحفظ السويس شبرا ، شبرا ، سيعبر أقصر الطرق إلى الموضع الذي نصبووا المعبر عنده ، سيضع العدة في حفرة على جانب الطريق ، يملأ أكبر براد عنده ، قبل مغادرته النسبة التي أصبحت فارغة تماما الآن ، قال له رفاعي السبائك إن فلاحين من الجنائن عبروا بأقفاص الطماطم والبلح وافطار ساخن وراء

---

---

---

الجدعان الذين باتوا كلهم ليلة أمس في الشرق ، لن يمنعه أحد ، القدامي  
يعرفونه ، الجنود الجدد سيعرفونه من القدامي ، بعبورهم إلى الشرق  
أصبحت الأرض إمتداداً طبيعياً للسويس ، للمدينة ، سيبحث عن  
فكري ، عن رجب ، عن لطفي ، عن كمال ، عن مكرم عن  
إسماعيل .. ينهضهم بأول صباحية في الشرق ، ارتفعت الأرض به ، لمح  
زرقة القناة ، أعمدة دخان بدت متجمدة في الصباح الباكر ، النقي ،  
تهوى انفجارات متتالية من السماء ، يمتد الجسر ، يصل الضفتين ،  
يربطهما ، يضطر إلى التوقف لحظات ، سيارات نقل ضخمة تتجه إلى  
الجسر ، صناديق الذخيرة ، المستطيلة الرمادية ، جنود فوقها ، يلوحون  
بأسلحتهم ، أحدهم يصبح ..  
عم خضر .. عم خضر ..

---

من ؟ لا يدرى من ؟ تبتعد الملامح مع اندفاع العربات المهتزة مع  
مطبات الطريق ، يحاول الأسراع بقامته المنحنية وخطواته العجوز ، عرفه  
الجدعان ، لا يعرف من صاحبه .. سيبحث عن كل أحبابه ، سيزرع  
كل ما لديه على من يقابلونه ، أمام الجسر ، فوق الجسر ، في الشرق ..  
كل ما لديه بجهود حربى .. ربما فوجيء برجان يناديء يحيطنه ، يكشف

---

---

عن صفين من أسنان لامعة ، يهتف مادا يده بكوب الشاي ..  
« غيبة وطالت يا مرجان .. » .

يونيو ١٩٧٦

الوجبة

〈 ٢٥١ 〉

---

---

(١)

.. اليوم ، لم تتوقف طويلاً أمام أي شقة في الطوابق الخمسة ،  
اكتفت بابياءة رأس سريعة وكلمات قليلة بجاراتها اللات فتحن أبوابهن ،  
جلسن أمامها يتحدثن ، عادة بعد رجوعها من السوق أو زيارة أحد الأولياء  
توقف ، ! تلتقط أنفاسها ، السلم المؤدي من طابق إلى طابق يتكون من  
ثماني عشرة درجة حجرية يحفيها دابزين خشبي قديم يهتز إذا ما استند إليه  
أحد ، يدور حديثها مع جاراتها حول أسعار الخضر في السوق ، الشكوى  
من غلاء الأحوال ، لقاء عابر بامرأة عرفتها يوماً ، خبر زواج ، موت أحد

العارف ، استفسار عن احتمال تخفيض سعر الكهرباء ؟؟ اليوم لم تتوقف ، صعدت بحملها الثقيل ، حقيقة البلاستيك ، تبرز منها رأس قرنبيطة ، قرطاس تبلل ورقه بضغط ثمرات الطماطم اللينة ، يصل ، كرات وبقدونس ، اليوم يجيء من الشهر إلى الشهر ، تتظاهر ستة وعشرين يوما ، لا وقت تضيعه ، عندما وصلت السطح اضطرت إلى التوقف لحظات قبل أن تقطع الخطوتين المتبقيتين إلى باب الحجرة ، الضوء منبسط ، دافع عدما مساحة متساوية مغطاة بطلال سور السطح الواطي ، ووقف الغرفة مغطى بصناديق خشبية قديمة ، قوالب أحذية خشبية ، صفيح ، زجاجات فارغة امتلأت يوما بعطر بأبحبار بأدوية ، بقايا سكان قدامى تداولوا على الحجرة ، أكواخ من التراب وقطع الحجارة ، أول الشتاء اهتزت جدران الغرفة برياح عالية الصوت ، نفذت من فراغات غير مرئية ، تهز هب المصباح اليدوى ثم جاءت الأمطار ، ابتل الفراش ، سقط المطر على البلاط المكسوف بصوت عال كصبار لم يحكم إغلاقه ، عندما وصل أبيدى خوفا عليها واهتمامًا ، سألهما ، هل ابتلت ؟ هل ارتعشت ؟ طمأنته كعادتها ، لو هاجتها أقسى الأوجاع ، لروخذتها الأبر ، لا لتفظ آهة ألم حتى لا تزعجه ، نزل يومها إلى الحارة ، عاد بقطف ملأه ترابا وأحجارا صغيرة ، صعد فوق سلم خشبي قصير امسكته بيدها حتى لا تهتز ، نزل مرة أخرى ، في نهاية اليوم كدس أكواخا من

---

التراب حتى لا يتسرّب إليها المطر ، لم تخبوه بدخول الهواء البارد كسن المقص من الشقوق الخفية في الجدران حتى لا يشغل وقت الأجازة كلها ، إنها تفك الآن حزاماً من قطعة قماش مبرومة ، ربطت به ملائتها اللف حول حضرها ، ييرز أصبع قدمها الكبير من تهتك أصحاب مقدمة الحذاء البلاستونيـل ، تنظر بارتياح إلى الحجرة منذ ثلاثة أيام غسلت غطاء السرير ، أخفت المساحة المحترقة منه ناحية الجدار ولفته بإحكام حول المرتبة نظفت زجاج النافذة ، وأزالـت عـش عنكبوت تكونـ في الرـكن الأعلـى المواجه للسرير . في الفراغ رائحة البلاط القديم الممسوح ، من المسماـر المـفروـس في الجـدار يتـدلـي جـلـبـاه . . .

(٤)

تطلع إلى الظل ، تعرف على الوقت من حركة الظلـال الرـمـاديـة قبل المغرب بوقت كافـ يتم كل شـئ ، عند وصولـه لا تقوم إلا بـتسخـين الطـعام فقط ، بعد أن يخلـع ثـيـابـه ويغـسل وجـهـه في دـورـة المـياهـ التي تقوم عندـ الـطـرف الآخر من السـطـح . يخرج مشـمراً بـنظـلـونـه ، إنـها تـخرجـ أـوـانـ عـدـيـلـهـ الآـنـ ، صـيـنيةـ ، مـصـفـاةـ طـلـاطـمـ ، هـوـنـ نـحـاسـ قـدـيمـ ، حـلـةـ الـوـمـيـيـوـمـ مـتـوـسـطـةـ الحـجـمـ ، سـكـيـنـاـ قـصـيـرـةـ ، تـنـزـعـ الـقـشـورـ الـخـارـجـيـةـ لـلـبـصـلـ ، تـقطـعـ رـأـسـ الـثـمـرـاتـ بـالـسـكـيـنـ ، طـعنـاتـهاـ قـصـيـرـةـ مـوجـزـةـ بـالـطـولـ ثـمـ بـالـعـرـضـ . يـتسـاقـطـ

---

---

فتات البصل ، تسوق ، تمسح أنفها بظهر يدها ، تغمض عينيها ، تفتحها ، آلاف المرات التي لا ممت فيها الرائحة أغشية أنفها لم تصبها بتبلد ، تمسح يدها بحوارف جلباهما ، إنها تبتسم ، يميل رأسها ، تصغى ملامحها بتأثير صور قدية . يوم انتظاره يحيطها سيل من تلك الأيام ، تذكره الآن صغيرا ، يعود من المدرسة ، عندما يراها تنشر البصل أو تعصر الطماطم يصبح أنه سينزل في الحارة ويرجع ، تومئ موافقة ، لكنه يعود بعد قفرة لبشر درجات من السلم ، يسألها ، متى ستنهين من الطبيخ ، تقول ، حالا ، يجلس القرفصاء ، بجانبها ، عندما يبدأ اللون البنى يتسرّب إلى البصل تطلب منه أن يأوي بنصف رغيف ، تضع فيه قليلاً من التقلية ، تطلب منه أن يتصرّب حتى يتنهى الطبيخ ويُجيء أبوه ، في الصباح تعطيه نصف رغيف مشو فولا ، أثناء نزوله السلم تصيب عليه كى يختبر عبّت الصبية ومحاولتهم خطف طعامه وكراريسه .

إن ملامحها تتصمت فجأة ، تلم للحظات شفتيها إلى داخل فمها ، تعيدهما إلى وضعها الطبيعي ، تتحرك مرات متقللة بين الحجرة ، ودورات المياه وعشة قدية صغيرة تضع بها الثوم والبصل وكيلو يامية بخففة وتأدية فخار مكسورة العنق ، آخر ما تبقى لديها من أوان جاءت بها من الصعيد منذ ستين بعيدة ، تتأمل القل ، يغطي جزء أكبر من السطح لكنه لم يصل

---

---

---

بعد إلى صف البلاط الرابع ، ما زال الوقت مبكرا على آذان العصر ،  
يمكنها أن تصل الظهر حاضرا .

( ٣ )

تقول دائما عن موقد البريروس أنه « عشرة » العمر ، الآن تدفع  
الكباس ، تعلو النيران تقدمها خيوط دخان تبدو ظلاتها على البلاط أشد  
كتافة من قوامها في الفراغ ، تتراجع إلى الخلف حتى تنتظم النيران ، كثيرا  
ما قال لها ، ابتعدى حتى لا تلمس النيران شعرك ، قوائم الموقد الثلاث  
تميل قليلا عن وضعها الطبيعي ، يدو على الشتين منها سلام حديث ، لا يمر  
أسبوع إلا وتنزل به إلى سباق قريب ، إن أقدارا كثيرة تراكمت على نحاسه  
الأصفر ، تجمدت فكأنها جزء منه ، لم يستمر انتظام النيران طويلا ،  
نفخت بقائها ، صاحت ، « احتدل وإلا خبطتك في الأرض » ، يضحك  
عندما يسمعها ترتعق هكذا ، تتحنى نمسكة الإبرة تحاول تسليك ثقب  
الغاز ، ترتجف النيران مرات ، ثم تنتظم زهرة من لهب تتوج الموقد  
النحاسي ، تقول بارتياح ..

« أكمل جميلا حتى تنتهي الطبخة .. لا تكسفنى » .

يأذ صوت النيران ، بملعقة صغيرة تفرغ الكوب الممتلىء حتى نصفه  
بالسمن ، تخمول القطع المتجمدة إلى سائل أصفر يزدحم بفتقاقيع صغيرة

---

---

متآلة ، تتلاشى ، تنمو من جديد ، يندو السمن المنصهر متآهبا لا ستقبال  
البصل والقلفل وعصير الطماطم ، أشعة الشمس تتدفق كالمرق  
الساخن ، أزيز الموقد يدركه وهن ، تصيح ..

« خلي عنديك دم .. لم يبق وقت لدعلك » .

آخر أجازة لحظ تعبها مع موقد البريوس ، اقترب منها في الصباح  
المبكر ، أمسك كتفيها في إحدى المرات القليلة التي تتلامس فيها أيديها ،  
أنها يتواجهان ، تتحرك في حبه ، وعطفه فهو ما تبقى لها يتتابه حين  
واحترام لأمة العجوز التي لم تهدأ طوال حياتها ، يقول لزملائه إنه لم يرها  
نائمة أبدا ، ودائما تقوم قبله وتتام بعده ، تترقرق مشاعره ، لكنها  
لا يتبدلان القبلات ، لا يعبران عنها يشعران به بالكلمات غير أنه في آخر  
أجازة أحاطها بذراعيه ، قال ..

« ولا يهمك .. بعد إنتهاء الخدمة سأشترى لك « بوتجاز » .

همست بخجل وسرور ..

« تحبب ليبيتك يا بني إن شاء الله » .

(٤)

آذان العصر من المساجد القرية ، مذياع بعيد ، تقوم إلى السور ،  
تحتضن الفراغ بعينيها ، بعد صلاة الجمعة في تلك الأيام البعيدة مجلس

---

أول السلم ، يصغى إلى برنامج ساعة لقلبك ، ربما يقللونه أو يخفضونه ، عندئذ لا ينهى قعدهه مباشرة إنما يكث قليلا ثم يقطع السلم عدة مرات قبل أن يتکيء إلى السور متأملا هذه المآذن البعيدة ، تنظر الآن إلى مذنة الحسين الرشيدة ، التحيلة ، طافت بالمقام ودعت له أن يشفيه من مرض أو يوفقه في المدرسة أو يثبته في الوظيفة ، منذ ذهابه إلى الجهادية تدعوه ، لزملائه ، لكل أبناء الناس الذين يعيشون في الخطر ، تدعو لزملائه في الملجأ ، تعرف أسم كل منهم ، تلفظ الآن دعاءها « إن شاء الله يا سيدنا الحسين » ، غبار معلق يضفي على البيوت البعيدة رمادية داكنة ، أما البيوت القرية فيميل طلاؤها على اختلافه إلى إصفار أو بتأثير الشمس المنكسرة باتجاه الغريب ، بعد ساعات سيتمدد فوق السرير وتتعدد فوق الأرض ، رأسها يحاذى صدره ، يأسماها ضاحكا عن الأخبار ، تحكي عن البيوت ، عن الخنافس ، عنها رأته أثناء زيارتها للأولئك ، يقاطعها ..

« خذى بالك وأنت تعبرين شريط الترام .. .

ستحدثه عن اهتمام محمد الخضرى بها وقوله بصوت مرتفع لصبيه إسماعيل « أقضى حاجة الست الحاجة .. ادع لنا يا أمي » وردتها عليه « الله يبارك لك في رزقك » ، الآن تتطلع إلى الطريق ، مارة ، جلابيب ، قمبسان ، بنطلونات ، طفل يدحرج طوقا ، رجل يعانق رجلا ، يتراجع لحظة برأسه ثم يستأنف العناد ، فوق سطح المصبعة يمشي رجل يحمل

---

---

خيوطا صوفية مبلولة ، ينشرها على أعمدة خشبية متلة ، يصبح مناديا  
شخصا اسمه « حسين » ..

( ٥ )

بطرف لسانها تتذوق الطيب بعد أن أضافت ملحا ، منذ عشر دقائق  
أضافت نصف كوب من الماء ، في نفس المكان الذي ياز فيه الموقد الآن  
جلست أمام الطشت ، فوق كرسي الحمام يقعد في مواجهتها ، يمدثها عن  
أستاذ العربي الطيب ، وأستاذ العلوم القاسى ، الأول لا يضرب والثان  
يقسوا على التلاميذ ، تصغى إليه ، تدعوه لأستاذ العربي وتلعن مدرس  
العلوم ، بين الحين والحين تطلب منه أن يناروها صابونة أو كوز الصيف ،  
شاء المرحوم أن يعلمها حتى النهاية ، لكن الزمن يبدل ويعير ، الآن يعلو  
صوت المذيع ، تنظر إلى الطريق ، ثلاث فتيات ، سقاء يدفع عربة حملة  
بقرب المياه ، يخفق قلبها فجأة ، جندي عند المنحنى ، لكنه قصير ، غطاء  
رأسه أسود اللون ، تستطيع تمييز قامته وطريقة مشيته ، تماما كالمرحوم  
والده ، انحناءة جذع الجسم الأعلى إلى الأمام قليلا ، ربما لأن ثقل جسمه  
يستند إلى أطراف أصابع قدميه ، تذكر الآن آخر مرة خرج فيها ، تابعته في  
بداية النهار الرائق كالخليل ، في الفناء رفع رأسه مبتسمًا ، اختفى ،  
تابعته ، مدت جسدها إلى أقصى ما تستطيع ، عند المنحنى توقف لحظة ،

---

---

عدل وضع غطاء رأسه الأزرق ، كثيراً ما قالت بخاراتها أنه في الصاعقة ، عندما تسمع اسم منطقة الكتاب في أحد البيانات العسكرية يبسط قلبها داخل جسدها مقدار اصبعين متجاررين ، إذا تصادف لقاؤها بإحدى صاحباتها وسألتها عنه ، تقول إنه في الكتاب ، وتتفكر ، « الصاعقة هناك » .

إن أزيز الموقد يتوقف إما لنفاذ الكيروسين أو لعدم دفعها الكباس لفترة ..

صبح ضئيل .

إن ثقباً يغرس صدرها ، ينبعث ضوء آخر من دكان سعيد البقال أيد خفية تنشر الضوء في الفراغ ، قرآن من مدحناع قريب « والضحى والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلا » .. تعجز عن تمييز الملامح مع نزول الليل لكنها تستطيع رؤية جرسون مقهى الميدان يرش الأرض استعداداً لاستقبال الزبائن الليليين ، عند الطرف الفصلي للرصيف المحاط بسور حديدي يجلس شخص ما يدخن نرجيلة وضعت أمامه منذ دقائق ، ترفع عينيها إلى السماء الرمادية ، ترجو التهار لا يرحل والليل لا يقبل ، تود لو أغفت عينيها قليلاً ، تفتحهما لتتجده أمامها وأن يواظها ، منذ سنوات طويلة لا تذكر مقدارها ، وضعته فوق السرير طفل رضيعاً نائماً ، قعدت

خارج الغرفة تغسل بعض ثياب المرحوم ، صباح شتوى عتيق لا تدرى الآن في أي السنوات هو لكنها تعى حدة الهواء البارد وكثافة الغمام في السماء ، اهتز الباب بتأثير الهواء ، لم تتبه إلا على صوت اصطدامه ، أغلقت الحجرة تماماً ، المفتاح بالداخل ، دارت بعينيها حوصلها ، راحت ، جاءت ، نزلت إلى جارتها المست روحية « الحقيقى يا أم كاميليا » راحت تبكي ، طمأنتها ، جاءت أم سعدية أيضاً ، وقفن يعالجن الباب ، انزوت هي بعيداً عنهن ، تعص أصعبها بقوه ، تبكي ، عندما نجحن وفتحن الباب ، أسرعت ، وجدته نائماً ، لم توقظه الضجة ، احتضنته ، قبلته ، لم تتوقف عن البكاء ، صاحت المست روحية :

« الولد سليم والحمد لله .. والباب فتح .. لماذا تبكين ؟ آه .. لماذا تبكين ؟ ». .

(٦)

تتوالد النجوم بكثافة ، تخف الرجل من الطرقات ، تبدو العدوة خطى العابرين ، يسرع الترام ، حركة ما بعد العاشرة ليلاً أو الخامسة عشرة لا تدرى ، الظلال غطت الدنيا وأسود لونها ، كيف ستميز الوقت ؟ هل أخطأات في حساب التاريخ ، بالضبط اليوم اثنين ، لم تجلس منذ ساعات ، يسرى مثل حشن تحت جلد ساقيها تستدير ، من تسأل ؟ الى

أين تمضي ، إنها في أشد الحاجة إلى الحديث مع .. مع من ؟ لو جاء في  
 Miyadah لبدأت جلساتها الليلية منذ فترة ، تبتعد عن السطح ، تعود لتطل ،  
 تزحف بروقة على الطريق ، ربما عبره في تلك اللحظات التي ولت بنظرها  
 عنه ، تبتعد عن السور مرة أخرى ، لا تتبعه إلى الموقد الهامد ، البارد ،  
 ولا تشعر بوجود الإناء يحوي الطيبخ في فراغ السطح ، لم ترفع غطاءه ، لم  
 تعرف منه ، لم يرفع المقصمة المغموسة في المرق ويقول « وحشني أكلك » ، لم  
 تمسك بقطعة لحم وتصر على أن يأكلها ، يحببها بأنه شيع وأمام إلحادها  
 يقول « تعزمين على .. أنا غريب ؟ » إنها تعبر السطح بسرعة ، تذكر  
 المرحوم اذا يعطى للصغير نصيبيه ، ثم يعطيها نصيبيها ، تقسم ما أخذته  
 قسمين ، لا يمكن أن تدخل لقمة إلى فمها لم يذقها ، تنزل الدرجات ،  
 كتفاها هابطتان ، تحت حمل غير منظور ، تقف أمام باب الست روحية ،  
 صوت أنات الأسطري حدى الترزي يطلب كوب ماء ، شبشب ياط فوق  
 بلاط الصالة ، عبر الباب المغلق تشم رائحة هذا الحديث الليل  
 والاسترخاء المتعب ، أبواب الشقق التي أغلقت ولن تفتح الا صباح  
 الغد ، لا يتظرون زائرا أو قدوم غريب أو قريب ، شظايا ضبحكة بعيدة ،  
 كيف ستطرق الباب ؟ فراغ البيت مثلث برايئة هي مزيف من آثار بصل ،  
 أناث قديم ، بلاط مسحور ، ميدادات حشرية ، عطن غامض ، الشقق  
 كلها مغلقة ، آخر أجازة قال نفس العبارة التي اعتاد لفظها عند ذهابه :

---

---

«إذا خط أحد الباب .. لا تفتح إلا إذا تأكّلت أولاً .. من هو؟» .

(٧)

تضيّع بقایا أصوات البيوت ، دوائر النور الشاحب تحت المصايف في الطريق البعيد ، إنها وحيدة تماماً مع الليل ، صفير قطار بعيد كالأين ، ربما يجلس بأحدى عرباته ، ربما يقترب الآن ، ربما يعبر الناحية الغربية ، يفتح باب التاكسي أو الأتوبيس أو يقفز من عربة نقل ، ربما يبحث الخطى عمسكاً حقيقة اليد التي تقتل عبيشه الداخلية وفوط الوجه ، اعتادت أن تنسلها كل أجزاء وتنشرها على الجبل المتدفقها ، ربما يمتاز نقطة ما على الطريق الصحراوي في بطن الليل ، ربما يحملن بعينيه مفكراً فيها وكيف سيلقاها .. ربما ..

مارس ١٩٧٦

# حكايات الغريب

⟨ ٢٦٥ ⟩

---

.. في يوم السبت ٢ فبراير ١٩٧٤ بعد أن فتح الطريق إلى السويس للمدنين ، قام رئيس العهدة المخزنية بالمؤسسة العامة المعتمدة للتوزيع والانتشار بكتابه مذكرة يعرض فيها موقف الاسطع عبد الرحمن محمود ، حيث إن المذكور قام في تمام الساعة السادسة من صباح ٢٣ أكتوبر بقيادة سيارة نقل من طراز فورد موديل ١٩٥٦ عمله بصحف وكتب وبجلات نقلها إلى مدينة السويس وتسليمها إلى الحاج حسن السوداني متعمد التوزيع هناك ، وخلال السنوات الثلاث الماضية أصر على قيادة رحلات المؤسسة إلى السويس ، واعتبر أكثر سائقى المؤسسة خبرة بهذا الطريق الصحراوى الذى تكثر فيه المنحببات ويزدحم بالمركبات العسكرية . غير

---

---

أن أخباره انقطعت تماماً منذ ٢٤ أكتوبر ، وأصبح موقف السيارة الفورد والبضايعة غير معروف مما تسبب في وجود فجوة في دفاتر العهدة .

وفي يوم الأحد ٣ فبراير ، أبدى مدير المؤسسة حيرة عندما عرضت المذكورة عليه ، إذ إن الموضوعات التي يقرأها دائتها ذات طابع متشابه منها اختلفت مصادرها ، لم يسبق وقوفه أمام موضوع بهذا الشكل ، لهذا رفع السماحة وطلب رئيس مجلس الإدارة . وبعد تفكير مشترك صدر قرار بتشكيل لجنة تسفر إلى السويس وتستقصي الحقيقة حول مصير العهدة ، وفي تمام الساعة الواحدة والربع بدأت الآنسة سنية نسخ المذكورة الخاصة بتشكيل اللجنة بعد أن أنهت مكالمة تليفونية طويلة مع إحدى صديقاتها .

وبعد ثلاثة أيام صدر القرار من أصل وخمس صور ، يحمل توقيعاً رئياً لمدير المؤسسة ، وتوقيعًا جانبياً لرئيس قسم العهدة ، وأسفل الصفحة اسم « سنية » التي نسخت القرار . ضمت اللجنة الأستاذ الجواهري رئيس العهدة ، وسعيد طليل الموظف بإدارة الأفراد وشفيق نصرى الموظف بقسم التوزيع . عقد اجتماع عاجل حيث اتفق الأعضاء على صرف مبلغ لكل منهم كبدل سفر لمدة سبعة أيام ، وطوال مناقشة هذه النقطة لم يلفظ الأستاذ الجواهري كلمة حتى لا يقال أنه اشترك في مناقشة أمور مالية ستعود عليهم بالخير ، إنه موظف قديم خدم من قبل في ديوان الاطمئنان على صحة المواطنين ، عالم تماماً بالأصول والقواعد ، في اليوم التالي عقد اجتماع

---

آخر ، في بدايته ضغط الأستاذ الجواهري زرا جاء بعده عامل البو فيه ، طلب طايل أفندي شايا ، أما الأستاذ شفيق فطلب قرفة ، اعتذر العامل بسبب ارتفاع أسعار القرفة وندرتها ، أبدى شفيق أفندي ضيقاً وقال إن البو فيه سبيء ولا بد من تغيير المعهد ، اعتذر ، وأشار رئيس اللجنة إلى المهمة الصعبة التي تنتظرونها ، واستفسر عن تصور كل منها لخطبة العمل الواجب اتباعها ، اقترح طايل أفندي البدء هنا ، ضرورة الذهاب إلى أسرة المذكور واستجواب أمه أو زوجته أو أولاده واستيضاح آخر تاريخ تواجد فيه بينهم ، وأشار الأستاذ الجواهري إلى ملف أزرق . قال إن الخطوة الأولى من هنا ، تعجب طايل أفندي ، كيف فاتتها الفكرة ؟؟ تم استعراض محتويات الملف واتضح أنه يضم ما يلي ..

\* شهادة ميلاد باسم : عبد الرحمن محمود على ، من مواليد عام

. ١٩٤٤

\* اسم والده محمود على أحد . اسم والدته نجية ، تم تعطيمه مرتين ، الأولى ضد الجدرى ، والثانية ضد الدفتريا ..

\* شهادة حسن سير وسلوك ، موقعه من موظفيناثنين ، مؤرخة ١/٨/١٩٦٧ .

\* تصريح بممارسة القيادة على جميع أنواع السيارات .

- 
- 
- \* شهادة خبرة من المؤسسة المصرية العامة لنقل الأوعية الزجاجية الفارغة تبين أن المذكور قضى خمس سنوات في خدمة الشركة ..
  - \* شهادة معافاه من الخدمة العسكرية . نظراً لأنه الأبن الوحيد وعائده أمه ..

لاحظ الأستاذ الجواهري خلو الملف من العقوبات أو الجزاءات طلب تدوين هذه الملاحظة ، اقترح طايل أفندي الذهاب إلى أسرة المذكور غدا مع احتساب المدة التي سيقضيها بالعاطف من الفترة المخصصة للمأمورية ، تمهل الأستاذ الجواهري في الموافقة ، خاصة وان الاقتراح يعني تقاضيهم بدل سفر عن يوم سيقضونه في القاهرة .

### .. العاطف ..

بعد بحث استغرق ساعة . تخللها سؤال أصحاب دكاين ، وصبية ، وجرسون ، وأمين شرطة ، وامرأة عجوز ، ووصلت اللجنة إلى المنزل رقم ١١ ، آثار ظهور الأنفدية اهتماماً في الحى ، وسارعت امرأة تبع المحسن إلى الاختفاء ظناً منها بأنهم من الصحة ، صاحت أحدهن على السيدة أم عبد الرحمن لتتكلم «البهوات» ، خرجت امرأة حافية ، تخيط نصف وجهها بطرحة ، آثار خجل أثوى ما زال متبقياً مع العمر المتقدم

تساءلت عن أخبار عبد الرحمن ، من هي شهير عرفت انهم جاءوا من أجل ابنتها ، تطلعت إلى الأستاذ الجواهري ، أدركت من سنه وحركته البطيئة واحاطة الشابين به أنه أهم الثلاثة ، تقدمتهم عبر فناء به مياه غسل لم تجف ورائحة عطن وزير يستند إلى حامل معوج وسلم طويل بدون درايزين ، يؤدى إلى مجموعة من الغرف المفتوحة المتجاورة ، أطلت طفلة اختفت ، عادت ممسكة بطرف رداء امرأة عجوز ، وسمع صوت انثوى يطلب من محمد سرعة ارسال اكواب الشاي إلى أم عبد الرحمن عندما سمع الأستاذ الجواهري صوت كباس موقد غازى صاح طالبا منها أن تخضر لأن وقتهم ضيق ، لاحظ شقيق افندي صورة حجم كارت بوستال معلقة في مواجهة الكتبة القديمة ، تشبه الصور الصغيرة الثلاث في الملف ، عينان واسعتان تعلقان إلى الأمام ، على الإطار الأبيض أكلشيه أزرق « ستوديو الأزهر ». قالت إن أحدا لم يدخلها ، تمنت لو التقت بالبك المدير لكنهم لم يسمحوا لها بالصعود من الباب ، قاطعها طايل افندي قائلا إن البك حضر بنفسه إليها ، قالت إن أحد زملائه كتب خططا على لسانها إلى مأمور القسم ، والمحافظ . أخذنه منها جدع طيب يرتدي قميصا وينظرلها لم تره أبدا بعد ذلك ، قالت أن عبد الرحمن هو ما خرجت به من الدنيا وهو سندها . بدا لفظ « سندها » لشقيق افندي كأنه عوين ، لاحظ وشها أخضر باهتا يتوسط جبهتها ، تبدو في جلستها أكثر ضالة ، فكر ، أنها

أم ، بحث الأستاذ الجواهري عن الفاظ مناسبة يصيغ بها عبارات المرأة المفكرة في المذكرة ، قالت إن ابنها كالريق الحلو ، لم يسمع حسه أبدا ، لم يتشارج مع إنسان أبدا ، لم يدخل قسم بوليس ، أثناء ذهابها إلىصالح وأقاربها الموظفين يبحث عن ملامحه بين الوجوه ، ركبت الترام وعبرت طرقات لم ترها ، وجلست مرة بجوار شاب يقرأ جريدة ، هل يوجد ناس في السويس ؟؟ سألهما ، هل أنت مهاجرة يا أمي ؟؟ . قالت إنها لم تر السويس أبدا ، سمعت عنها كميناء يذهب منه الحجاج إلى مكة المباركة ، وعرفته بأن ابنها سافر كثيرا إليها . لكنه لم يعد ، قال الشاب ، طبعا هناك ناس في السويس يا أمي . هل تصلهم مياه ؟؟ قال أطمئنى يا أمي الماء عندهم أكثر من هنا ، سكت لحظة وقال أن عيونا خفية تفجرت من قلب الرمال . مياها عذبة حلوة تكفى بلدا . أشارت بأصبعها إلى أعلى ، قالت إن (جد عانا) كثرين ماتوا . ولو تأكدت فلا حول لها ولا قوة .

هنا ضيق الأستاذ الجواهري عينيه ، طلب التأكيد من آخر مرة حضر فيها عبد الرحمن إلى البيت ، قالت إنها تذكر خروجه وكان ساعة واحدة انقضت ، بعد نزول السلم طلع مرة ثانية ، قال (خل) بالك من نفسك ، نزل متمهلا نظر خلفه ثلاث مرات ، لو أن نافذة العجرة الوحيدة تطل على الحارة لتابعته ، لكنها تفتح على منور داخل تغلقها دائمًا خوفاً من الأبراص والموام ، قالت .. مضى على خروجه مائة ليلة وخمس عشرة ..

---

أنت بيدها حركة أيمكن شفيف أفندي معها أنها لم تأكل وجبة كاملة منذ مدة .  
وأنها تعان الحاجة بعد انقطاع راتب ابنها . وانها ستبكى بلا انقطاع بعد  
انصرافهم ، إن حواسها واهتمامها كله من أجل استكشاف أمر لو ضمبل  
يخفيه عنها هؤلاء الأفنديه ، ينحني الاستاذ الجواهري ، لهجته بطيبة ،  
يقول إن السائقين يلغون ويزرون الكثير من البلاد والعباد . لا يحتمل لقاوه  
بامرأة لفت عليه .. أغتوه ..

( لا .. عبد الرحمن ما يعملها ) .. قالتها باختصار شديد ، تحاول  
اخفاء استنكارها كجزء من احترامها لهؤلاء الاغرب الذين يمتنون بصلة  
ما إلى ابنها ، كل تصرفاته عليمة بها ، عندما حط عينه على صفة المغربي  
ابنته جلوس باائع العطور أخبرها . طلبت منه توفير بعض المال ، افترحت  
عليه التزول ليعمل سائقا على التاكسي لم يتزوج ، لم يقسم له نصيب من  
سننية ، ينظر الاستاذ الجواهري إلى عضوي اللجة ، لم يعد ما يقال منها ،  
إن الساعة تقترب من الواحدة . بعد نصف ساعة يصبح من المستحيل  
ركوب وسائل النقل تستمر أم عبد الرحمن ، لم يسكنها وقوفهم ، عندما  
فاجأت الصرعة اسامية ابن السست روحية جارتهم استغاثوا بعد عبد الرحمن نزل  
السلم يحمله ، ايقظ الدكتور عبد المعطى الذي يسكن فوق عيادته ، قال  
لو جاءته مثل هذه التوبة عليهم تعطيته بملاءة سوداء وأن يضعوا شيئاً صليباً  
بين أسنانه .

---

ينزل الأستاذ الجواهري . يتجمع صبية صغار . يبدو أن المست أم عبد الرحمن لا ترقبهم الآن ، تتحدث إلى شخص ما ، بدأ هذا مفاجئا لهم بعد اعتيادهم ثبات ملاعها وجود وجهها ، تقول إن أول مرتب قبضة جاءها به ، قال إنه يتفاءل عندما يعطيها أول خيره ، أمام البيت تقترب منهم امرأة تحمل طفلا . تهمس . طوال اليوم على هذا الحال ، ينام حتى كله في الليل لكن صوتها لا يهدأ . تخكى عن عبد الرحمن ، مسكنة .. أصلها لم ترأبض وأسود من ساعة غيبته .

«ملحوظة» ..

يجب الإشارة هنا إلى أن مهمة اللجنة عسيرة ، إذ لم يسبق القيام بثل هذه المأموريات . حرص الأستاذ الجواهري على التزام الخدر بالنسبة لأى خطوة . لهذا عقد اجتماعا فور وصولهم السويس . طلب شقيق أفندي ذهابه إلى المستشفى في الحال ، قرر الأستاذ طايل البقاء مع الأستاذ الجواهري لستريح قليلا من تعب الطريق . على أن يمضيا بعد الظهر إلى مقر المحافظة . ومديرية الأمن لسؤال المختصين . وبدأ الاستقصاء الرسمي ، قام الأستاذ الجواهري ليطلب أسرته تليفونيا يخبرهم أنه وصل السويس بخير ويطلب منهم لا يقلقا وأنه في أمان ، بعد عودته أكد على ضرورة تقديم تقرير مفصل عند نهاية كل يوم مدعم بالمستندات التي تدعم صحة ما يذكر فيه من أحداث ، وتاريخ ، وأقوال شهود ..

---

## المستشفى ..

اعتربه رجل يرتدى معطفاً أبيض ، أبرز التصريح ، قال إنه يود لو قابل المدير شخصياً ، غير أن الرجل قال ، هذا الموضوع يصعب لأن المستشفى آوى جرحى كثرين في بداية المعارك ، مدنيين وجنوداً ، حتى الرجوع إلى سجلات المستشفى لن يفيد في قليل أو كثير ، لأن الوقت لم يتع لتدوين الجرحى كلهم ، أما مدير المستشفى الذى عاش الحرب والمحصار وداوى المرضى وعالج الجرحى فى شاء السميع العليم أن يموت يوم فتح الطريق وانتهاء المحصار ، قال إن الأهالى يعترفون ، الاغراب الذين احتجزتهم قطع الطريق . نظر شقيق أفندي إلى الأرض المبلولة . والمرضى يرحن ويجهش . ترى .. من رأى عبد الرحمن ، عض شفته ، سأل ، ألا يمكنه التعرف عليه لورأى صورته ؟؟ ابتسם الموظف ، قال إن طاقم المستشفى تم تغييره بالكامل ليلة أمس وأنه متذبذب من مستشفى قليوب ولا يعرف شيئاً . ثم هناك استحالة التعرف على الشخص من الصورة ، ربما حدثت به تشوهات أو اصابات بالوجه ، ثم إن الإنسان تغير ملائمه تغيراً كبيراً زمن الحرب بتأثير المعاناة ورؤية الموت والقتال ، سكت الرجل لحظة ، وقال .. عموماً اذهب إلى قسم السجلات ربما دلوك على الاسم ، لكن المسؤولين عن الدفاتر والسجلات اعتذروا عن تقديم أية

---

مساعدة لعدة أسباب موضوعية منها فقد بعض السجلات أنساء قصف مدفعي قام به العدو ضد المدينة أحرق جزءاً من المبنى ، الثان يتعلّق بالوقت الذي يستلزم حصر المستندات المتبقية والاشراف على تصنيفها . والسبب الثالث والهام أن كثريين جداً لم تدون أسماؤهم ، وأخرون قدم لهم العلاج اللازم وخرجوا بدون تقييد أي مستندات بما صرف لهم من أدوية أو علاج لعدم توفر الوقت الكافي ولا تشغال المرضيين والأطباء والموظفين فيها هو أهم مثل تصنيف المرضى وتوزيعهم على الأقسام طبقاً لنوعيات حالاتهم ، أمام باب المستشفى تسأله شقيق أفندي ، هل جاء الأسطفي عبد الرحمن إلى هنا ، هل خرج إلى مكان ما ؟؟ في الطريق الصحراوي على مسافات غير متساوية تبدو كومة حديد متداخلة ، ييرز منها إطار عربة ، أكياس قماش ، فردة حذاء رأى بعيني عقله الأسطفي عبد الرحمن يقود عربته في صحراء ملتهبة ، قدماه تضطخان دوسات السرعة ، قبضات نيران تومض هنا وهناك يتحرك الأفق حرقة دائرة لأن اندفاع السيارة ييرز دوران الأرض : لكن يحيى الوحش المعدن هادرا ، يدوس السيارة يعلوها ، يتجاوزها ، على جانبي الطريق رأى لافتات عبرية صغيرة ، زجاجات كوكاكولا وعلب طعام محفوظة فارغة منقوشة بالعبرية . ربما أحد الذين شربوا هذه الزجاجات داس عربة عبد الرحمن بدبابته .

أليس من المحتمل تعرض الأسطى عبد الرحمن لمثل هذا الموقف ؟؟  
وقتها نظر اليه الإستاذ الجواهري ، قال بلهجته البطيئة .. هذا  
ممكن .. لكن من يثبت هذا ؟؟

**«من التقرير اليومي لطويل أفندي»**

.. كما أفاد قائد عموم المرور أن نقطة المثلث بقيت مارس عملها وتزوية طوال يومي ٢٢ ، ٢٣ أكتوبر ، وعندما بدأت علامات الموجوم على المدينة استطاع أحد الجنود أن ينقل الدفاتر والتتصاريح التي تسجل حركة المرور من وإلى المدينة عبر الطريق الصحراوى ، وبالبحث ثبت ما يلى ..

«إنه في تمام الثامنة و٥٤ دقيقة دخلت العربية رقم ٦٧٠٧٣ . نقل القاهرة ، يقودها عبد الرحمن محمود ، رقم بطاقة الشخصية ٢٣٨٤٨ الجمالية ، وحامل تصريح مرور مستديم من وإلى السويس . وثبت أن هذه السيارة لم تغادر المدينة حتى صباح ٢٣ أكتوبر . وسألت سيادته عن احتمال مغادرتها بعد مجيء قوات الطوارئ الدولية لكنه نفى ذلك ، لأن الحركة تمت بواسطة سيارات الأمم المتحدة . وتم استدعاء الجندي سيد أحمد أهل ، وهو الوحيدة الباقى من أفراد نقطة مرور المثلث . أفاد الجندي المذكور إنه صباح يوم ٢٢ أكتوبر دخلت عربة النقل المشار إليها قال إنهم يعرفون سائقها لتردداته المستمرة خلال الحرب . وأنه صاح من نافذة الكابينة

---

بعد تدوين العربية « شدوا حيلكم يا أبطال » عاد في المساء . لكن الظروف تغيرت إذ قطع اليهود الطريق في عدة أماكن . كثرت الأخبار أنهم في الطريق إلى البلدة للهجوم عليها . أشتد الطيران ، وجاء الفلاحون من ( الجناني ) وجند شاردون . آخر عربة ظهرت أمام النقطة هي سيارة الأسطى كمال .

وهنا استوقفت الجندي سيد أحمد الأهل ويدأت استجوابه بحضور قائد عموم المرور نظراً لتناقض أقواله .

س : من تقصد بالأسطى كمال ؟

ج : سائق اللوري المبين رقمه في دفتر الحركة ..

س : انه اللوري المدن الوحيد المبين في هذا اليوم .. هل تقصد سائقاً آخر ؟

ج : أقصد سائق لوري الصحافة .

س : اسمه في الدفتر عبد الرحمن

ج : ناداه الباشجاوיש دائماً .. يا كمال .. وعندما جاء الطيران يقنز معنا إلى الخندق وسمعت الباشجاوיש يقوله له .. لا تخف يا كمال يا بنى .. ورأيته ثابت الوجه متوجباً . فسألته ألم ير ضرباً طوال حياته . فقال انه جاء إلى المدينة أيام الحرب لكن الأمور لم تصل إلى هذه الدرجة من العنف . رفع الباشجاوיש قلة ماء مكسرة القوهه ، شرب ماء قال ..

---

شرب يا كمال فهز رأسه قال إنه ليس بعطشان ..

س : ألم يدخل لوري آخر في هذا اليوم ؟ ..

ج : لوري واحد ..

س : ربما سمعت الاسم خطأ ..

ج : أبدا .. في مرة بعد انصرافه وقف الباشجاويش ساهما ، وسمعته يكلم نفسه .. قال إنه شبه ابني كمال .. أى والله الخالق الناطق .. كمال أبيني ..

س : بعد انتهاء الغارة أين ذهب ؟؟

ج : عاد باللوري إلى داخل البلد .. ولم تخرج ولم تدخل أى سيارة منذ هذا اليوم وحتى فتح الطريق

### ملاحظات الأستاذ الجواهري

.. ثبت أنه لم توجد سيارة نقل زرقاء رقم ٦٧٠٧٣ . خلال الحصار ، وأفادت المباحث الجنائية والمباحث العامة . والمباحث الخاصة بوجود حطام بعض السيارات المدنية المضروبة بعضها يستخدم كمتاريس أو عوائق . أما السيارات السليمة فمحدودة ومعروفة ولم تستخدم على نطاق واسع نظرا لقلة البيزین أيام الحصار وقمنا بمعاينة حطام نقل لم يستطع أحد الاستدلال على صاحبها . وجدناها متفرحة تماما . متزوعة الاطارات . مضغطة في

---

---

بعضها للدرجة أن كابين القيادة اندمج بمؤخرتها.. كما احترق طلاوهما تماماً . وحاولنا العثور على لوحى الأرقام لكن ييدو أن بعضهم انزعها إذ وجدنا المسامير القلاووظ التي تربطها مفككة وملقة . قمت باستدعاء صاحب ورشة سيارات هو فنى معتمد لمعاينة الحطام مقابل ثلاثة جنيهات ( مرفق ايصال بالملبغ ) . وأفاد أنها من طراز فورد ، لكنه لم يحدد اية مواصفات أخرى ؟؟

« .. بزيارتي للمسؤولين بالمحافظة أفادوا أنه لم يتواجد شخص بهذا الاسم خلال الحصار . مع ملاحظة أنهم قاموا بحصر جميع الأهالى بالمدينة بعد معارك يومي ٢٤ ، ٢٥ أكتوبر . لتوزيع المئوية عليهم وقالوا إن الغرباء الذين احتجزوا بالمدينة معروفون وحالاتهم واضحة » ..

« .. لم يتعرف أحد من المسؤولين بالمحافظة . وقوه عموم المباحث على صور المذكور ، ولم يدل أحد بما يثبت أنه رآه قبل أو خلال أو بعد الحصار » ..

---

## شفيق افندى يحاول استقصاء الحقيقة ..

.. مساء اليوم الرابع للمهمة . بعد أن أجرى الأستاذ الجوادى اتصالاً بأسرته للمرة الثانية طمأنهم وطلب من أصغر أولاده إلا يعاكس أمه ، كما طلب من زوجته أن تستعجل قمصانه التي أرسلها إلى الكواه قبل سفره ، وبعد اتخاذ طايل إفندى ترتيبات لشراء سمك من الخليج الذى بدأ الصيادون فى التزول اليه ، اتخذ الأستاذ شفيق افندى طريقة لمقابلة بعض أبناء البلد من رجال المقاومة والمعروفين بين الناس باسم الفدائين ، أبدى أكبرهم سناً دهشته من هدف اللجنة ، تسأله ما الذى يتنتظر من سائق عربة توجه صباح ٢٢ أكتوبر إلى السويس ولم يعد ، حاول شفيق افندى شرح الظروف والملابسات ولح إلى القوانين الجامدة والوعيدة والمخازن .  
خرج ، بدأ يشرح أوصاف عبد الرحمن وطبيعة عمله ، لم يكمل حديثه حتى قال أحد الفدائين الأربع « إنه يتحدث عن الغريب ». دق قلبه . رأى المست أم عبد الرحمن تكف عن حديثها المتصل فجأة . يهز الأستاذ الجوادى رأسه . يقول بعض معارف عبد الرحمن بعد سنوات ، ذهب ولم يعد ، قال قناوى الفدائى ، إن الغريب جاء مع الحاج حسن السودان متعمهد توزيع الجرائد والمجلات ، الحاج يعرف عنه كل شيء المؤسف أنه

---

---

---

توكل على الله ، ذهب بطلًا في معركة قسم الأربعين ، عينا شقيق أفتدى  
تحيطان بسرعة بالوجوه ، بكل ما في القاعة ، بطاطين رمادية ، صناديق  
ذخيرة فارغة وزمزميات مياه ، مكان يأوي مقاتلين ، مكان اقامة مليئة  
بالخذر والترقب ، لوحة ملونة ، فارس يرتدي خوذة ، يشهر حرية ، فوق  
رأسه كتابة واضحة « أبو زيد الملالي » آخر تفاصيذ من ذ حرية اختفت بقياه  
مع اللوحة الممزقة ، لابد أنها تتمى إلى أصحاب الشقة الأصلين . رب العالم  
يلحظها أحد حتى الآن برغم تواجدهم اليومى هنا .

يقول قناوى إن الغريب بدا حائراً عندما جاء إلى قسم الشهداء مع  
ال الحاج حسن صاح كثيرون إن اليهود قادمون إلى كويرى الزراير . بدأ  
الملازم حسن ضابط الصاعقة في توزيع رشاشات وقنابل ، قال الغريب  
لقناوى « فين كويرى الزراير ؟؟ ». .

وأشار قناوى إلى اتجاه المكان ، سأله ..

« تعرف تضرب نار ؟؟ ». .

« ممكن أعرف ». .

ناوله قناوى رشاشاً وثلاث قنابل خارقة للدروع ، نظر الغريب إلى  
السلاح . هذه الدهشة الحقيقة والخذر تجاه السلاح لدى من يلمسه لأول  
مرة . قال قناوى ، هذه شرائط الذخيرة . حول المقپض أضغط الزناد .

---

---

---

تزايد الحركة بين الناس ، كويرى الزراير ، كويرى الزراير ، قال الغريب ..

(آجى معاكم ؟) .

رأه قنواى مع الرجال . طلب منه الملازم حسن تدعيم الكمانين عند الهويس ، لم ير قنواى الغريب لكنه عرف أخباره من الذين حاربوا عند الكويرى الزراير .

سأل شيق أفتدى عن إمكانية اللثاء بأحدهم . نظر قنواى إلى زملائه . نزا ، إبراهيم إلى مصر بعد فتح الطريق ، لكن حسن موجود ولم ينزل في أجزءة بعد ، تسأله شقيق أفتدى عن حسن هذا ، قالوا إنه ضابط الصاعقة ، وأنه حارب عند كويرى الزراير ، وصباح اليوم التالي أكد الملازم أول حسن عمار ، إن الغريب لم يكن يعرف ملامح السويس لأنه سأل مرتين عن كويرى الزراير أثناء توجه الكمانين إليه ، لم يسأل خائفاً أو متربداً . عندما تقدمت الدبابات رأى الغريب يتقدم ، يقف ببطوله في مواجهة الدبابات مخالفًا كل القواعد التي يتخذها المشاة عندما يتصدون للدروع ، كان يريد الاقتراب إلى أقصى حد ممكن من الدبابة . يبدو أنه صرخ بشيء ما . زعق بدت حركة ذراعه عندما القى القنبلة الأولى ، انفجر الجسم المعدن ، تصاعد دخان كثيف له قوام . أزرت رصاصات

البنادق الخارقة في اتجاه أفراد العدو الذين قفزوا من برج الدبابة ، بـدا  
الاضطراب على حديد الدبابة الثانية ، دار المدفع الرئيسي إلى الشمال ،  
ارتد مكانه ، بدأ الجسم الصخم مرتباكا قبل أن تند ذراع الغريب في  
استقامته إلى الخلف ، القى القبلة الثانية ، قال إن آخر مرة رأه فيها بين  
الدبابة الأولى والثانية ، غطى الدخان كل شيء ، أصدر أوامره بتغيير  
أوضاع الكمين . بعد انتهاء المعركة عادوا إلى مكان الدبابتين المحطمتين ،  
لم يجدوا جثته قال إنهم ذهبوا بعد وقف اطلاق النار لأن الحركة استحالت في  
المدينة يومي ٢٤ و ٢٥ بسبب الرصاص الطائش ، قال إنه سأله عنـه ، من  
هو ، ما اسمـه ، لقد سمع أثناء القتال أحد الرجال يزعق .. يا مجدى ..  
فهلـ هو اسمـه . خاصة وأن كل أفراد الكمين معروـفـونـ بـلاـسـمـ ولا يوجد  
منـهـمـ مجـدىـ لكنـ الـذـينـ تـبـقـواـ منـ الرـجـالـ لاـ يـعـرـفـونـ إـدـ باـسـمـ الغـرـيبـ  
صاحبـ الحاجـ حـسـنـ السـودـانـ ..

ملحوظة أخرى ...

قام الأستاذ الجواهري في اليوم الرابع بزيارة موظف كبير بجامعة الشؤون الصحية أثر اكتشافه معرفة قدية ربطت بينها يوماً ، وبالطبع ورد ذكر الأسباب التي أنت بالأستاذ الجواهري ، قال الموظف إنه لا يعرف شخصاً حارب في المدينة بهذا الاسم ، لكنه سمع حكايات من بعض الأهالي عن سائق لوري قطع عليه الطريق وحارب عند كويري الزراير ويقال أنه واجه

---

---

الدبابات واقفا ، حتى إنه اعتلى أحدها ودمرها بقنبلة ودمر نفسه معها ،  
وهنا قال الأستاذ الجواهري إنه جاء خصيصا من أجل هذا الشاب ، تمهل  
صوته . بدا فيه فخر خاصة عندما بسط راحته على صدره قائلا :  
« إنه من عندنا واسمي عبد الرحمن محمود ..

في الليل حكى الأستاذ الجواهري لطويل أفندي وشقيق أفندي  
ما سمعه ، وهنا أبدى الشابان حساسا وقالا إن هذا دليل واضح . لكنه هز  
رأسه حائرا وقال .. ربما ولكن من يثبت هذا ؟؟  
من تقرير طايل أفندي ..

وأجمع البعض على أن الأهالي سحبوا الغريب في نفس ليلة  
استشهاده ، ودفنه بسرعة بالقرب من الطريق المؤدى إلى شركة شل ،  
وأثناء الحصار قرر الحاج حافظ نقل الشهداء إلى مقبرة واحدة داخل  
السويس ، وعندما حفروا لنقل الغريب صاحوا الله أكبر ، الله أكبر ،  
مسحوا دمعا جرى ، وجدوا الجثمان على حاله ، مفتوح العينين ثيابه لم  
تبلي ، قدماه حافيتان لأن حذاءه خلع قبل الدفن ، بدت الدماء فوق  
تميشه طرية كأنه أصبح منذ لحظات .. .. ..

في روایات أخرى أكد البعض أن الشخص الذي نقلوه من المدفن غير  
الغريب ، والصحيح أن الثان انفجرت دانة فوق تماما ولم يعثر له على أثر ،

---

---

وأكدهؤلاء إن المكان الذي استشهد فيه تفجرت منه عين ماء عذبة فيها بعد  
خلال الحصار ..

قالت امرأة عجوز تعيش بجوار كشك الصحف الخاص بال الحاج  
السودان إن الشاب الغريب اسمه خلف رأته مراراً يجيء إلى الحاج ، قالت  
إنها ذهباً إلى كويري الزراير وحاشا اليهود عن دخول البلد وماتا ، قالت  
إنها ذهبت إلى الكويري ، قالوا لها ارجعى يا وليه لأن المكان على مرمى  
النظر من اليهود ، لم تهتم لأن ما يربطها بال الحاج عشرة عمر ، أما الشاب  
فتحت اليه ، قالت إنها ذهبت لعلها تشم رائحة من أثر تركه في مكان  
موته ، قالت إن خلف تحدث إليها كثيراً ، سألهما مرة . لماذا لم تهاجر ،  
قالت إنها لا تطيق البعد عن السويس . أخبرته عن ابنها في القاهرة ،  
متزوج وعنده أربعة أولاد ويعيش في القلعة ، سألهما لماذا لم تذهب إليه ؟؟  
قالت انه لا أحد يطيق أحداً في هذا الزمان . بدلاً من أن تنقل عليه وعلى  
امرأته فضلت البقاء هنا تستلقط رزقها من هنا ومن هناك ، قالت إن خلف  
حن عليها واعطاها خمسة وعشرين قرشاً ، وكلما جاء اعطتها حاجة ،  
عندما تجولت فوق كويري الزراير اخبرها رجل يقيم بالقرب من المكان عن  
عصافورين لونهما أخضر ، يتزلان فجر كل يوم ، صوتهما أحن من الحنين ،  
وأطربى من قلب الأم ، يحومان قليلاً ويختفيان فجأة كما ظهرتا فجأة ، لم  
يختلفها ميعاداً .. » .

---

---

---

وقدمت بتوجيهه سؤال إليها عن الاسم الكامل ل الشاب ، قال إنها لم تسأله أبداً عن اسمه أو امرأته وعياله . لكنها سمعته بينهما وبين نفسها « خلف » خلف ابنتها الأولى الذي انجبوه منذ أربعين سنة وما : بعد سبعة شهور من ولادته ، هكذا فجأة بدون مرض أو سبب ..

### من حديث سوسو الحلواني إلى شفيف أفندي

.. سأله شفيف أفندي بالحاج ، هل رأيت الغريب عند الماوسين بعد معركة كوبري الزراير ؟؟

قال إنه لا ينسى أبداً ، لو أن الله مد في أجل البمبوطى كفتةه والباشجاويش سعد لأكدا ما يقوله الآن ، لأنه وصل إلى الماوسين معهما ، قل إن الجواب داما مقلوبا ، وكأن جزءاً من طاقة جهنم فتح على الناس ، أما الهواء فتقيل كدخان الجبر ، مالفت نظره إليه ، اتخاذه أو ضاعوا تعرضه لاقصى الخطط ، حتى قال البعض إن الغريب القادم محجب . مثل هذا لا ينسى أبداً ..

إن شفيف أفندي يرغب في توجيه المزيد من الأسئلة ، لكن الحلواني سوسو يحملق إلى الأرض ، نسى تماماً وجود الأفندي القادم من مصر ، سهم فجأة كنزول ليل مباغت ، لم يستطع شفيف أفندي أن يخداش صمته ، ووصد دمعات تسفل على مهل من عيني الحلواني سوسو ..

---

## ملحوظاتأخيرة ..

اجتمع الأستاذ الجواهري في مساء اليوم السادس بعضوي اللجنة ، قدم طايل افندى تقريراً بدا أثناه تلاوته منفعلاً ، قال فيه إن باشجاويش شرطة من قسم الأربعين وأمرأة عجوزاً من الجنان إلى المدينة عندما هاجها اليهود وقتلوا أولادها وأثنين من أحفادها ، وبائع قلل متجرل ، وعطاراً من حى زرب ، وصياد سمك يمتلك قارباً ، أكدوا أنهم شاهدوا الغريب قبل نهاية الحصار بأيام . وأكد قارئ القرآن عجوز انتدبه وزارة الأوقاف من المنوفية إلى مسجد الشهداء ليقرأ القرآن قبل الحرب بأسبوع واحد إنه التقى كثيراً بهذا الشاب ، لا يمكن أن ينطلي لأن الذين احتجزتهم الظروف تقاربوا من بعضهم لغير كل منهم حكاية صاحبه ، أجمع الكثيرون أن الغريب بدأ كثيراً الحركة لا يهدأ ، لا ينام في مكان واحد ، بل نادراً ما رأه البعض نائماً ، كل من رأه شاهده مستيقظاً يؤدى عملاً ، في الليل يقف خلال نوبات الحراسة عند أطراف المدينة ذهب إلى بور توفيق أكثر من مرة . حفر الخنادق . نقل العديد من العوائق كالعربات المدمرة والحجارة الثقيلة ليسد بها الطريق . شوهد يحفر مع بعض الشبان آباراً للمياه قرب سيدى الغريب ، سمع يؤذن للصلوة مرة ، كما أنشد بعض المواويل في سهرة أقيمت خلال الحصار ، تبرع بهم مرات لأن المدينة عانت نقصاً في الدم . يقال إنه تسلل مرات إلى قلب خطوط العدو ، استطلع الأخبار ..

---

أثناء توغله رسم خرائط لموقع العدو ومرابض مدرعاته وأنواع مدعياته ،  
وارسلت هذه الخرائط إلى مصر بطرق خفية ، وأكَد عدد من الأهالى أنه  
خرج في قارب ليصيد السمك برغم علمه بوجود الألغام في الخليج . لكنه  
دائماً يجيء إلى المرسى الراكد . يسأل «فين المراكب» يحرك المياه بضربيات  
المجداف ، واقسمت امرأة من حى الأربعين إن الغريب القادم من مصر  
جاءها عندما أتتها المخاض في الليل وصرخت من الألم حتى لفظت الشهادة  
بعد الناس عنها ورحيل زوجها وشقيقها قبل الحصار ويقانها وحيدة .  
يُبَدِّيه انہ ولادتها العسيرة ، تلقى الطفل عند خروجه ، وقال صاحب  
مكتبه تهم في الحرب إن الغريب أصلح عربة لورى معطلة وقادها عبر  
شوارع البلد مرتين .

---

أصغى الأستاذ الجواهري بهدوء . لم يفته ملاحظة الجدية المفاجئة التي  
نزلت على طايل أفندي حتى صار يخرج من الفندق في السابعة صباحاً  
يسقصى ويلتقى وسيجرى المقابلات ليعود في المساء . حتى أنه جمع معلومات  
دقيقة عن ملامح الغريب وطريقة مشيه ، وسجل بالأسماء التي أطلقت  
عليه من الأهالى . لم يجد الأستاذ الجواهري انفعالاً . قال إنه أمر مشرف  
للمؤسسة أن تعلن استشهاد أحد ابنائها في السويس . لكننا لم نعثر على  
أثر ، لم نجد له قبراً ولم يجمع اثنان على رواية واحدة . ثم ما هو موقف

---

---

العهدة سيارة النقل والبضاعة ، وياعتباره قضى عمراً باكمله في خدمة الحكومة فما يهمه أولاً الاطمئنان على أموال المؤسسة .

يصغى شقيق أفندي صامتاً . صباح اليوم رواهه يقين أن الغريب يطوف بالطرف الآخر من المدينة . اسرع الخطى . لم يلحظه وبقي وحيداً في هدوء شتوى يخيم فوق انفاس البيوت . ورائحة البحر في الخليج الغريب ، حتى ستجيء لحظة يلتقي فيها بالغريب لا يدرى متى ، لكنه سيحکى له طويلاً ، انه على وشك اتخاذ قرار بينه وبين نفسه ، أن يبقى وقتاً إضافياً ولن يبالي بالأستاذ الجواهري . طايل أفندي يقول إنه طلب زيارة الأسطى عبد الرحمن مضى إليه مع عدد من شبان المدينة ، قرأوا عليه الفاتحة ، ماذا تبقى اذن لتقتنع المؤسسة بمورته وتعنجه حقوقه ، يهز الأستاذ الجواهري رأسه . يكرر بهدوء إن هذا مشرف للمؤسسة ، لكن ما الذي يثبته .. أين الأدلة ؟؟

١٩٧٤

طنيس

〈 ٢٩١ 〉

---

.. خطبة محكمة ، بعدها هوت ، ضاعت قدرتها على الطنين ، أول حصيلة اليوم ، خطأ فوق الحديقة الصغيرة المحيطة بالبيت ، استطالت حشاشتها ، غطت الجدران ، لحية كثيفة خضراء لم تهذب ، صحة بمرك سيارة ، يصفع ، بهم قليلاً ناحية الباب ، يتزايد صوت المحرك ، إذ تمرق العربة أمام البيت ، يضع حداً لتساؤله ، أهى عربة جيب ، أم نقل ؟ كثيراً ما يبدأ رهاناً مع نفسه ، أراهن أنها عربة جيب ، لو خسرت سالف الحديقة سبع مرات ، في الليل يغطي رأسه بطاقية الصوف . أرسلتها إليه ابنته من المانيا . . . « نسجت لك يا أبي هذه الطاقية قبل دخول الشتاء ، لتنفء رأسك في ليالي بور سعيد الباردة ، أما الجوارب فأرجوك ألا تهمل ارتداءها ، طالما تشعر ببرودة ، لن يأتيك النوم ، واظن . . . » ماذًا تظن ميسرة ابنته ؟ صحيح عمره سبعون عاماً ، لكنه أكثر نشاطاً من زوجها ،

---

---

فِي السَّادِسَةِ وَالنَّصْفِ تَمَامًا يَقُومُ مِنْ نُوْمِهِ ، طَوَالَ النَّهَارِ ، يَقْضِيهُ هُنَا فِي حَدِيقَةِ الْبَيْتِ الْأَيَّامِ الْأُخْرَى غَيْرِتِ عَادَاتِ قَدِيمَةِ ، لَمْ يَعُدْ يَخْرُجَ لِلتَّجَولِ قَرْبَ مَبْنَى هِيَّةِ الْقَنَاءِ ، يَنْظُرُ قَبَابِهِ إِلَيْهِنَّاءِ وَصَوَارِي الْلَّاسِلْكِيِّ وَالْبَحَارَةِ الْأَغْرَابِ يَتَحَرَّكُونَ فَوْقَ سَفَنِهِمُ الرَّاسِيَّةِ وَالْقَوارِبِ الصَّغِيرَةِ وَجُنُودِ الْجَمَرَكِ وَرَاكِبِي الدَّرَاجَاتِ مِنْ عَمَالِ التَّرْسَانَةِ الْبَحْرِيَّةِ فَوْقَ مَعْدِيَّةِ بُورْ فَوَادِيرِ قَبَ تَرْفُقِ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ ، بَيْوَتِ الْمَدِينَةِ مَسْتَكِينَةِ وَادِعَةِ ، تَنْضَحُ رَطْبَوَةً ، تَنُوءُ بَهْجَرِ أَصْحَابِهَا ، لَا طَعَامَ يَطْهِي فِي طَوَابِقِهَا لَا صَيْحَاتِ أَطْفَالٍ تَسْتَقِيمُ الشَّوَارِعَ ، فَرَاغُهَا حَادٌ كَسُوَارِ سِجَنٍ ، لَمْ يَعُدْ يَتَجَولُ فِيهَا ، يَصْغِيُ وَشَبِيشُ سَعْفِ النَّخِيلِ الْمَرْشُوقِ فِي شَوَارِعِ الْحَىِ الْأَفْرَنْجِيِّ ، يَسْتَندُ إِلَى الفَرَاغِ ، طَوَالَ النَّهَارِ يَقْضِيهُ هُنَا ، فِي حَدِيقَةِ بَيْتِهِ ، مَمْسَكًا مَنْفَضَةً مِنَ الْبَلَاسِتِيكِ زَرَقاءِ ، أَدَانَهُ فِي تَنْفِيذِ قَرَارِهِ الَّذِي اخْتَلَهُ مِنْ فَتَرَةِ ، الْآنِ ، يَسْرِي طَيْنَ هَادِئَ وَاثِقَ ، يَتَصَلَّبُ جَسْدَهُ فَوْقَ الْمَقْعَدِ ، لَا يَصْغِيُ إِلَى تَنْفُسِ الْبَحْرِ النَّهَارِيِّ ، يَقْشُرُ جَلْدَهُ انتِظَارًا ، يَدُورُ بَعْيَنِيهِ حَوْلَهُ ، يَحْكُمُ أَمْسَاكَ الْمَنْفَضَةِ ، يَتَعَدُّ الطَّيْنَ ، لَنْ يَعُودُ الْاِضْطِبَاجَاعَةُ الْمَنْيَةُ فَوْقَ الْمَقْعَدِ وَرَحِيلِهِ بَعْيَنِي عَقْلَهُ إِلَى ابْتِئِهِ عَلَى الشَّاطِئِ الْآخِرِ مِنَ الْبَحْرِ ، كَأَنَّهَا تَرْقِبَهُ الْآنِ ، تَبَادِلُهُ النَّجْوَى ، سَيَظْلِمُ مَتَبَاهِيَ يَعْرِفُ طَرِيقَهَا ، تَدُورُ ، تَدُورُ ، تَضْيِيقُ حَلْقَاتِ مَرْوِرَهَا بِالْقَرْبِ مِنْهُ ، تَبْتَعِدُ فَجَأَةً ، صَمَتَ الْمَدِينَةِ يَضْسُخُمُ الطَّيْنَ ، فَجَأَةً ، هَا هِيَ فَوْقَ جَلْدِ ذَرَاعِهِ الْأَيْسِرِ ، تَسْتَندُ إِلَى سَاقِيَهَا

---

الأماميتين ، تند خرطومها ، تمارس طقوسا غامضة ، لغتها غير مفهومة ، لا يدرى كيف حطت صامتة ؟؟ ربيا هوجم باثنتين في وقت واحد ، أى خطأ ينفذها لصد الهجوم ؟؟ يوش البحر ، يرتد موجه ، آه .. راحت ، بلا طنين ، لن يهدأ ، لن يغفو ، طوال أيام أربعة كاملة ، لم تنبع واحدة في ملامسة جسده ، والابتعاد حية ، أو طارت يتذكر يومه ، ييدو البحر الشاب البهيج مغارة يأوي إليها الملائكة ، أيام الطوبيلة خواص مفرغة من الأخبار والأحداث ونذر المفاجآت ، ترتعش أطرافه ، يهاجمه أرق لم يأته قط في ليالي نشاط الطيران المعادي ، بأى مشاعر تتلقى ابنته نبا هروب مصدر الطنين منه ، فشله في إدراكه لن تسأله عما إذا كان يحرص على شرب اللبن قبل نومه أم لا ؟؟ .. دائياً أراك يا أبي ، أعيش معك أول النهار عندما تصصحو من نومك ترتدي ثيابك كاملة ، تطمئن على صلابة ونظافة ياقات قميصك ، تماماً ك أيام ذهابك اليومي إلى المستشفى ، تند يدك تلامس ذقني ، تميل ، تقبلني ، عند بلوغى المرحلة الثانوية ، اضفت عادة جديدة ، اتجاهلك إلى صورة المرحومة أمي فوق الجدار ، تتحنى ، تلفظ تحية الصباح وكلمات أجهلها ، لم اسمعها قط ، لم تبع بها ، في كل يوم ، عندما أعرف أن الصباح يضم بور سعيد ، أشعر بيدك تلامس ذقني ، أتق انك تداعب صورق ، ربيا توجه ألفاظا دقيقة إلى ، تقبل ابني عادل ، عادل يا أبي يتحدث الألمانية بطلاقة ، لكنني أطئنك ، أنا حريصة جدا

على تعليمه لغة موطنـه ، أما اـحمد فـمشغول في تحضير الرسـالة ، استعداداً لـمناقشتها في . . . « لو أفلـتت واحدة سـتحزن مـيسـرة ، أربعـة أيام طـرد العـشرـات ، هوـي بـضرـبات قـصـيرة ، مـحـكـمة ، عـندـما يـشرع المـشـنة تـخلـي الرـعـدة عن يـدـه لـن يـهدـأ اليـوم إـلا إـذا وـضـع حـدا هـذـا الطـينـ ، خطـابـات مـيسـرة تـدـفـق التـأـثـير إـلـى كـيـانـه ، الشـئـ الوحـيد المـتـظـرـ من العـالـم البعـيد ، يـومـيا يـتـعـجل مـجـيـء ساعـى البرـيد ، لـورـآه الأنـ لـن يتـخلـي عن تـرـصـله ، لو زـارـه أـيـضا ضـابـط المـوقـع القـرـيب ، هـادـئ المـلامـع ، قـلـيل الـكلـمات ، يـجيـء يـومـيا ، يـسـتـند إـلـى السـور الخـشـبي ، يـعـرف الدـكـتور غـدرـهـنـدـ شهرـ ، فـي الـبـداـية كـعادـة الصـحفـين ، والـزـائـرـين الغـرـباء ، تـسـاءـل عـن السـبـب الـذـي جـعل الدـكـتور لا يـهـاجـر يـوـما واحدـا؟ حتى عـندـما اختـفـت المـديـنة بـقلـة المـياه العـذـبة ، حـاصـرـها الطـيـران ، قـطـع شـرـاـين الوـصـل ، خـرج مـعـه الدـكـتور وقت غـروبـ ، توـقـقاً أـمـام بـيـت خـشـبي من طـابـقـين ، يـسـتـند إـلـى ثـلـاثـة أـعمـدة طـوـيـلة تـغـوصـ فـي الـحـجـرة ، يـسـقـرـ منـكمـشا بـيـن عـمارـتـين شـاهـقـتين يـتـوارـى خـجـلا ، بـايـه مـغلـق يـقـفل حـدـيـدي ضـخم ، طـلـاقـه أـخـضر ، فـرق درـجـات السـلم الضـيق بـرـقـت عـيـنا قـطـ ، أـشار الدـكـتور إـلـى الطـرـيق ، « قبل رـحـيلـهـ إـلـى أـورـبا لـاتـعلم الطـب ، سـهرـ أـفـارـيـ هنا معـ أـهـالـي الـحـي ، تـزـوـجـتـ اـبـة عـمـى لـيـلة سـفـرـي ، ذـكـرـ رـبـنـيـنـ أوـتـارـ السـمـسـمية ، وـرـقـصـة الـبـمـبـوـطـية وـصـيـاحـ الأـحـبـة ، لـعـلـة الزـغـارـيد ، لـونـ الرـمـالـ الأـصـفـ المـفـروـشـ أـمـامـ الـبـيـت »

---

اصغرى إلى وقع خطواتهما في فراغ يلمع فيه الأسفلت ، وهواء مبلل  
بملوحة البحر ، طعم اليود ، قال إنه يعرف بيوت المدينة بيتاً بيتاً ، قبل  
التهجير يستطيع كشف الغريب في قلب الزحام ، عندما أغلقت البيوت  
بدأ يطوف في الشوارع ، حتى في أوقات الاشتباكات ومجيء الملاك الملائكة  
من الشرق ، توقف ، « هل ترى هذه العمارة ، أضخم مبني في  
بورسعيد ، أنت الآن في الحي الأفرينجي » ، قال إنه يعلم خلوها من  
السكان ، في أول ليل بعيد ، رأى ضوئاً يلمع في نافذة علوية ، نور وحيد  
معزول في أقصى الطابق العاشر مصلوب كضوء فنار ، لكنه ثابت  
لا يدور ، أخذته حيرة ، ترى من يقى هنا ولا يعرفه ؟؟ من رأى باب  
العمارة مغلقاً بلا قفل ، تراجع ، عاود النظر ، تبدو المسافة نائية ، لورأته  
ميسرة الآن ستصبح غاضبة ، تحيطه بذراعيها ، أما المرحومة فتحتها تراه ،  
ترعاه وتصون شيخوخته من خدش ، منذ رحيلها الأبدى يومن من  
ملازمتها له ، تراه ولا يراها ، تدرى ما سيجري له ولا تستطيع أخباره ،  
رجف بشفتيه معتدراً ، لعلها تقبل طلوعة ، لن يتراجع ، بدأ طلوع  
السلم ، المصعد هامد معلق بين الطابق الثان والثالث ، وحشة البيوت  
الخالية ، الأبواب جحمة فيها صد ، شاخت قبل الميعاد ، جفف عرقه عند  
الطابق الثامن ، أخيراً ، يبدو الضوء من وراء زجاج الباب ، قال  
للشاب ، أنا الدكتور غفور طبيب المستشفى الأميركي سابقًا والمحال على

---

المعاش حاليا ، أنت لست من أهالى بور سعيد ، من أنت ؟ دخل ، فراغ  
مثقل ببرطوبة ، غرفة واحدة مضادة ، ما تقوية سريرا حديديا صغيرا ،  
صحيفة فوق الجدار تدفع الخير عن ثلاثة قمصان وجاكته ، بنطلونين  
وبلوفر أسود ، بدأ الشاب مرتبكا ، جلس الدكتور فوق السرير ، ممسكا  
قمة عصاه براحتي يديه ، قال الشاب إنه من أهالى بور سعيد لكنها المرة  
الأولى التي يجيء إليها ، عاش عمره في مصر درس الهندسة ، والآن يجيء  
ليعمل في المسترال ، الشقة ملك لعمه ، أوصاه بالتردد عليها ، اعجبه  
الموقع الشاهق من الشرفة البحرية ، أطال الدكتور سهره ، تحدث إلى  
المهندس الشاب عن المدينة ، بساطة ورقة الحياة فيها ، لو جاء إليها قبل  
العدوان لأحبها الآن أكثر ، تعقب أصول الشاب ، استقصى افراد  
عائلته ، مضيا إلى الحى الأفرينجى ، إلى حى المناخ ، هنا سكنت عائلة  
فلان ، وهذا بيت فلان ، وهنا كانت تسكن عائلة استشهد كل أفرادها  
عام ١٩٥٦ ، بدأ الشاب وكأنه يتعرف إلى المدينة لأول مرة ، وأشار الدكتور  
إلى حفرة قديمة ، هنا سقطت دانة مدفعة في بداية الاشتباكات ، فنكت  
شظاياها بثلاثة عشر إنسانا ، في الطريق المجاور خلال الحرب العالمية  
الأولى ، اغارت طائرات ألمانية كأقاصاص الفراخ ، رمت قنابل ، أحدثت  
كل منها فجوة في حجر طبق كبير ، توافقا أمام حلوان جيانولا ، بدأ  
الدكتور ساهما ، تبحر نظراته فوق بحر من الحزن بلا مراسى ، قال ..

هناك الأماسي جلست مع أم ابنتي ، بالضبط هذا موقعنا المفضل ، تتأمل وجوه الغرباء في الصيف ، في الشتاء نجلس بالداخل ، صحبتنا دائمًا مهندس يوناني اسمه ديمترى ، في أوقات فراغه يصنع غاذج دقيقة لبونخر ببيجة الألوان ، يقسم لووضعها في البحر لعامت ، عرفت مقصدتها إلى بلاده رأساً ، بدا الدكتور خفينا نشطاً ، أمسك كوبا زجاجيا .. بالتأكيد شربت أم ابنتي من أحدى هذه الأكواب ، يقطب حاجبيه ، كل شبر هنا اقطع من عمره مقدارا ، يقترب الطنين ، يخلق موجات في أذنيه ، هذا طنين ساخر لم يعرفه من قبل ، لا يرى مصدره ، يهزا بقراره إلا تفلت واحدة قط ، لا يدع الطنين يمر في خواء المدينة ، ينظر حوله ، يشعر جلدء ، أبداً ، لن تحظى أى جزء من ثيابه حتى ، يتزايد الطنين فجأة ، خط حاد مختصر ، خروج دانة من فوهه مدفع ، يضرب الفراغ بالنشوة ، أبداً لم تهُو ، بالأمس فتك بأربع عشرة واحدة ، أما هذه فتبعد وكأنها تعد بالثار لكل ضحايا جنسها السابقين ، يخفي الصوت الحاد اللزج ، لن يغادر الخديقة ، سيبقى كما تعود دائمًا جلوسه النهارى ، سيرصد حركتها ، يحيى الآن الطنين رفيعا ، يعرف أنها تدور في خط دائري واسع ، ستقطعة وتنتجه رأساً إليه ، آه ، ضرب ساقه بالنشوة ضربة قوية أمالت جسمه إلى أمام ، نظر ، أبدا .. كتلة سوداء صغيرة الطين مستمر ، أى نهار هذا ؟؟ لم يعد يسمع مرور العربات ، وحشة المدينة لم تندفع بونخر إلى قلبه كهذا

الطنين ، خطابات ميسر الرقيقة ، برقيتها إلى عشية عيد ميلاده ، قبل ميعاده بيومين ، ذهب إلى ناظر محطة الأنطويس ، رحب به ، طلب منه تكليف أحد سائقيه بشراء تورته فاضرة من دمياط ، ليلة عيد ميلاده ، حمل التورته إلى البيت ، خفيف الخطى ، لا ينقصه إلا انتظار زوجته ومسئر ديمترى وابتاه ، رص الشموع ، في المساء ارتدى الخلعة السوداء والبابيون ، نزل إلى صالة البيت ، أضاء مصابيح النجفة كلها ، أصنف إلى إيقاع السكون الموحش ، وقف طويلا أمام الصورة المطلة عليه من عالم آخر ، بأصابعه المهترئة عود كبريت رأسه حراء اللون ، أضاء الشموع ، ضغط زر النور ووقف مسكا عصاه ، تزايد وشيش البحر القربي ومرقق الرياح انحنى بهدوء ، استجمم قواه المشتلة عبر سنين بعيدة ، نفح بقوه ، أطفأها كلها ، قبل صورة امرأته ، ميسرة وحفيدة عادل ، على مهل جلس في المقعد الكبير ، ينظر إلى الشموع المطفأة فوق التورته الكبيرة ، عندما جاء ضابط الموقع الشاب في صباح اليوم التالي ، رجاه أن يحملها إلى رجاله ، تورته كاملة لم تخدش ، السكرفى دمه يمنعه من تذوقها ، أمرافس العمر كلها وأوجاعه تفاجئه الآن ، تدهمه كموجة عاتية ، تهدم صفا من الأبنية ، يعود الطنين قويا حادا ، آه .. ترق بجوار أذنه ، يضرب الفراغ بالمنشة ، يسقط فوق ركبته ، تنبىء بداية اليوم بمصابيح وألام ، اتسخ ببطولونه تلفت حوله ، لم يره أحد ، الاهتمام ببيته لن يشغله عن متابعة

---

---

الجسم المحتلق اللعين ، في البداية لاح الأمر تحديا طرifa يقطع به الوقت ، يغالب قسوة اليوم والوحشة ، الآن .. لن يأوى إلى البيت ، سيطارد منبع الطنين ، بالضبط .. بالضبط .. ها هي .. مرت أمام عينيه ، لا تجرو على الاستقرار لحظة فوق جسده ، أو ثيابه ، باعنته رعشة قوية ، تصور لحظة أنها تستقرت فوق زجاج النظارة ، تنهي طيرانها في خط مستقيم ، تدور متمهلة ، لا يلمح التفاصيل ، لا تختلف ملامحها العامة عن أيام واحدة فتك بها ، يتقدم خطوات ، يتبعها ، يبدو مسارها واضحا ، ببطء ، ننزل ، تستقر فوق السور الحديدي القربي من الكرسي ، .. ثانية واحدة ، جزء من ثانية وستعيد صفاء جلسته ، يستعد لاستقبال الضابط الشاب عندما يأتيه باسها بعد الغذاء ، يخرجان إلى طرقات المدينة العذبة كأبيات في قصيدة حزينة ، بينما يحيى الغبار المسائى من ناحية البحر ، ضربة واحدة وبروق اليوم كلها ، بالضبط .. تمد خرطومها اللعين ، من أي عالم موبوء جئت؟ في صمت ، على مهل ، يرفع ذراعه مسكا بالمنفضة إلى أعلى .. .

١٩٧٢

# ريح الجبل

〈 ٣٠١ 〉

---

.. ها هي أيام بنایر الأخيرة تولى ، ولا يزال فوق صخور عتقة ، بين مدقاته الضيقة ، المترعة ، التي تشرف في بعض الأحيان على هاوية غير متوقعة ، بين كهوف عرف عمق بعضها ، لم يتوجل في العديد منها لا متدادها مسافات بعيدة ، يقل الهواء داخلها فيثقل فراغها على صدره ، يجعل خطوه مضطربا ، كما تجعل الروائح الثقيلة للهواء كثافة ، روائح بقايا الوطاويط ، الفشان الجبلية ، الثعابين ، وحيوانات صغيرة ، دققة الحجم ، تندفع عبر تلك الانفاق الطبيعية المجهولة ، قد يجد نفسه بداخلها عرضة للحصار المفاجيء ، المباغت ، الذي لا مهرب منه ولا فكاك قد تقوم قبلة دخان بالعمل كله او كومة أعشاب يحرقونها عند الفوهة ليختنق ، بعض هذه الكهوف يمتد عدة كيلو مترات ، تحفل

---

---

بتيارات هوائية مجهلة المصدرى داخلها ، بعضها ساخن والآخر بارد ، يقولون إن هذه المرات تتفرع وقد تؤدى إلى عدة منافذ للكهف الواحد ، بعضها قرب القمة والأخر يلامس السفح ، يؤجل محاولة الكشف ، فصعب أيامه لم يأو إلى أى كهف حتى ولو بدأ كغرفة مهدتها الطبيعة ، لم يضع أى جزء من عتاده الفضيل داخل إحدها لأنها هدف مستمر للتفتيش ، تثير الشك أكثر من حفرة على جانب مدق أو تحت صخرة معلقة إلى جرف ، في الليل يتحول الجبل إلى كهف كبير بلا جدران ، خاصة عندما يأفل القمر وينأى ، تندمج أطراف الصخور . تضيع كل التفاصيل ، تتردد مئات الأصوات مجهلة المصدر ، عواء ، صيحات ، حيوانات لا يدرى إلى أى جنس تتمنى ؟ أزيز حشرات دقيقة ، مضيضة ، لا تنشط إلا في ليالي السواد الكامل .

سيقول إنه لا شيء يبعث الرهبة برغم ذلك إلا نزول هذا السكون الأجوف ، الكل ، في فترة ما قبل الغيب بلدها من شحوب العصر ، ييدو الجبل مقبرة للنهار ، يتسلل سكون موجع من المسام إلى الدم ، ينكمف بالذكريات إلى الأيام المولية ، يوحى بضمير المدن البعيدة ، بإيقاع الحياة الآمنة ، حيث يستيقظ الإنسان بعد إغفاءة العصر ، يتناول شيئاً ساخناً ، يستحم ، يرتدى ملابسه متمهلاً قد يصفى إلى أغنية منبعثة من الراديو ، يحيى أمة أو أمراته أو أخواته أو يسأل أو أطفاله عما يحتاجون إليه ،

---

---

ما يرغبون في أن يعود إليهم به ، على السلم تصل أصوات البيت ، خادمة تقول .. يا ستي ، صوت طبيخ فوق موقد ، في الشارع يحيى الجيران ، في المقهى يلتقي بالأصدقاء .

سيقول لزملائه إنه احتمل حتى الآن أربعة وتسعين يوما ولا يدرى كم سيمر عليه إذا طال الصمت ؟ سيقول إنه رأى الثلوج في الأعلى ، بخبرته هنا حسم رهانا دار يوما بين سليمان الحلبي والبرق في معسكر التدريب . تسأله سليمان الحلبي ، هل ينزل الثلوج فوق عتاقة ؟ قال البرق ، طبعا لا .. وهل تنزل ثلوج في مصر ؟ هنا أكد سليمان نزول الثلوج في الأعلى ، لو دقق الواقع عند أطراف السويس سيري الثلوج ، نفى البرق ، لوح سليمان الحلبي بجنيه كامل ، قال : هذا رهان بيني وبينك ، ستتأكد عندما نطلع في دورية إلى عتاقة وهذا مني مقابل عشرة قروش متك ، لم يأت أحدهما إلى عتاقة ، سيقول لها أنه رأى تجمد المياه في الشقوق ، لا ينزل الثلوج من السماء ، لكنه يوجد إذ تنخفض درجة الحرارة انخفاضا مريعا بعد نزول المطر .

سيقول إنه لم ينم في أيامه الأولى بالجبل ، أربعة أيام ، يذكرها كأنها يوم واحد ، متصل ، في البداية احتاج إلى تأكيد كل معلوماته عن الجبل ، إلى استطلاع الموقف ، استكشاف المكان ، اصلاح أماكن الایواء بالجبل طبقا للظروف الطارئة ، انه خبير بعتاقة ، لكن منذ صعوده إليه والأرض

---

---

---

تكتسب قيمتها ليس لناعتها الطبيعية فقط ، إنما يبعدها عن العدو أولاً ، وصلاحيتها للعمل بالنسبة إليه وليس بالنسبة لأى إنسان آخر ، فقرر أن يبحث عن عدة أماكن تصلح لنومه وأخر يجئه في مئونته القليلة ، مكان يدفن فيه نفسياته ، آخر يدفن فيه البطاريات الاحتياطية للجهاز ، ومكان يمكن منه أن يدير الجهاز يرسل إشاراته ، قرر استطلاع المدققات الصعبة التي لا تصلح ل Yoshi العدو ، المرات الجبلية التي تخالل الصخور ولا تسمح للشخص الواحد إلا بالمرور زحفاً أو بالجنب ، الأماكن الصالحة لبطوط الهيلوكبتر وغير الصالحة ، عندما نزل الليل بسرعة أجل جولته إلى فجر اليوم التالي .

سيقول إن الرياح بدلت غربية ، هبوبها على ارتفاعات مختلفة وسرعات متعددة ، اصطدامها بالمنحدرات وأطراف الصخور والحجارة الضخمة المعلقة التي انفصلت عن الجبل في زلزال سحيبة ، دورانها بالحفر ، ارتدادها المفاجيء ونفذتها إلى أعماق الكهوف والفتحات وخروجها من أماكن غير مرئية ، تحدث أصواتاً متداخلة لم يعرف مثيلاً لها في جميع المناطق التي ارتداها في سيناء أثناء عمله خلف الخطوط ، هنا لا يستطيع أكثر البشر خبرة معرفة اتجاه الريح أو متابعتها ، من كل شبر تجئ ، إلى كل مكان في العالم تقضي ، تسافر ، تعود ، تتبع ، صغير متصل كإشارات جهاز اللاسلكي العاجلة ، سرب من طائرات مقاتلة

---

---

يهى من النساء مرة واحدة ، أبواب نحاسية ، دفوف ، عوبل نساء حزان ، جنازة كونية ، أثناء التدريب حذرهم القلعاوى ، قال ان وقتاً ينبعى أن يمضى حتى يت畢ن الحقيقى من الزائف ، وعندما تستفز غزيرة القتال إلى أقصى حد يختصر هذا الوقت إلى لحظات ، اقترح القلعاوى عليهم أن يتخذ كل منهم اسمًا لا يعرفه إلا قلة قليلة ، يبدأ به أي نداء يوجه إليه أو يرسله ، في الليل ابتهج زملاؤه قالوا إن كل الناس لا يختارون اسماءهم ، يشب كل انسان ليجد اسمه مقدراً قبل أن يعرف ، لا رأى له فيه ، إنما هم سباح لهم الفرصة من جديد .

سيقول لهم عندما يخلو إليهم ويحكى إن كل شيء خلف الخطوط يبدو كأنه يسمع أو يرى لأول مرة ، حتى لو طرق الإنسان نفس الباب عشرات المرات ، المفاجأة محتملة ، متوقعة ، دائمًا ، كامنة في الجهات الأربع الأصلية ، المفاجأة تلغى الشعور بالعادة ، من يدرى منذ ساعة خلا الطريق ، ربما جاء العدو ونصب كميناً ، لكن هنا فوق عتاقه يختلف الأمر ، لكل ليلة جبلية ملائهما ، لكل ساعة أصواتها ، يتغير الطقس قبل قدرة أي جهاز على التنبؤ ، خلال النهار يدو الدفء مستقرًا ، يكفى أن تخفي سحابه لتحجب قرص الشمس الذي يدو من وديان عناقة أكثر بعده ، على الفور تأخذ البرودة طريقها إلى عظامه ، يزيل غياب الشمس حاجزاً غير مرئي ، تطبق الظلال ذات الملمس على صدره كأنها يار خيمة أو

---

أطبق البحر عليه وغوصه بلا توقف ، تضاعف الظلال بعد القمم ، تبدو أطراف الجبل مرسومة على صفحة السماء غير المستوية ، يشيخ النهار فجأة ، تدركه وحشة الساعات الأخيرة من النهار ، تدركه هذه الوحدة التي تباغته مع سكون النهار الأخير ، عندما تشق جدران الجبل سوداً في وجه الفراغ ، يدرك بغريزته حركة الحيوانات والزواحف غير المرئية ، تململها في مراقدها ، استعدادها للخروج إلى عالمها الليلي ، يتساءل عما سيأتي به الظلام ؟ ، هناك خلف الخطوط كل ما يحيط به عدو ، هنا فوق عتاقة يكمن رؤية السويس ، إذا دق النظر يرصد الدخان المنبعث من بعض المداخن ، حركة العربات في طرقاتها ، العمارة التي اتخذتها الوحدة مقراً لفترة قضى بها الأيام الحلوة مع الرجال ، أدهم الشرقاوى ، سيف بن ذي يزن ، الفتى مهران والبرق ، والصاعقة ، موج البحر ، أحسن الأول ، البراق ، خلال حصار العدو للمدينة لم يعمق شعوره بأن الأرض محتلة ، بعكس المسافات القصبة التي يقطعها داخل سيناء التي يتواجد فيها العدو منذ سنوات ، في عتاقة ، اعتبر وجودهم عارضاً ، رصد ضيقهم ، إن وجود السويس القريب منه يضاعف وحدته الجبلية بقدر ما يؤنسه ، كثيراً ما قطع دريا وعرا ليصل إلى الحافة الجنوبيّة المطلة على المدينة خلال الحصار ، في الليل رأى قبضات ضوء تتوهج لثوان فوقها ، بدا بعضها كبقايا شمعة صغيرة داخل فانوس غير مرئي ، من النيران المنبعثة حول

فوهات المدافع أمكنة تحديد مواقعها استطاع تمييز هب المدفع من طلقة الفيلز المضيئة ، تختلف عن مشاعل الطائرات التي تبدو محاذية له أثناء اشتعالها فوق المدينة ، تراقص لهاها على الصخور ، ضوء باهت استوعبه عتاقة ، محاولة فاشلة لفتقا عين الليل ، أوشك على نسيان نفسه مرات أثناء تأمله المدينة ، عندما سدد المنظار المقرب مقتاحها الفراغ النهاري بعيشه تحولت المكعبات الصغيرة إلى بيوت واسحة الملامح ، ميز مدرجات الاستاد ، مبني شركة شل ، عندما وجه المنظار صوب الأرض القريبة من الخليج رأى أنابيب مصانع الزيتية المتلوية المتضخمة فوق الأرض ، صهاريج البترول المحاطة بساتر دائري من الطوب الأحمر ، أشعلها العدو في اليوم التالي لإغراق المدمرة « ايالات » ، بكى عمال المصنع ، تدافع رجال الأطفال ، وشهدت رجل عجوز لم ير بعد ذلك أبدا . عرفه العمال الموظفون بائعا للسجاد والصحف منذ إنشاء المصنع لم يفارق موضعه حتى بعد التهجير ، قيل إنه حزن واحترق مع المصنع ، سواتر الطوب لم تتحمل الحرارة ، التهبت ، تطاير الطوب الساخن المشتعل كالشظايا في كل اتجاه ، من خلال المنظار لمح عربة فوق الطريق الممتد بين السويس وبور توفيق ، عربة جيب ذات أربعة أبواب ، تخصص عادة للقادة . من اهتزازاتها يشعر بالحفر التي تر فوقها ، توارت خلف أحد البيوت ، ظهرت .. اختفت ، ربما قر بالشارع حيث الاستديو الذي عمل به سنوات ، لابد أن الغبار

غطى الفاترينة الزجاجية التي تتصدر واجهة العمارة وتزدهم بعشرات الصور ، ربما انهار البيت ، لا يمكنه رؤيته من الجبل ، على بعد امتار من الاستديو مطعم أبي أمل الشخصي في السمك المسوى ، عندما تتاب أحد زملائه نوبة تحد أو كرم يصبح .. والله أدعوك للغذاء عند أبوأمل ، أغلى بعد التهجير ، سمع أنه فتح في طنطا لكن لم يقبل عليه أحد ، يذكر واجهه عندما رأه مغلاقا في آخر مرة رأى السويس قبل ذهابه إلى سيناء ، قائمة الأسعار بهت الوانها ، تطل ملتصقة بالزجاج ، زهور صناعية مطلة من إماء خزفي فرق منضدة مهجورة ، ما أثار حزنه طوال تردداته على السويس أو أقامته بها رؤية دكان مغلق يحمل اسم صاحبه أو ثلاثة زجاجات كوكا كولا تستقر بين الأنماط كأنها وضعت بعناية ، أو لافتة طبيب تطل من بين الأنماط أو زجاجة دوائية بقياها لم تستعمل ، نسيها أصحابها أثناء رحيلهم وبطريقة ما طفت فوق الأنماط ، مضت عربة الجيب ولم يرها ، ربما عبرت أمام البرق ، أو أدهم الشرقاوى ، ربما ركبها أحدهم ، ترى .. كم بقى منهم ؟ إلى أين رحل سليمان الحلبي ؟ أى مهمة أوكلت إليه ، وهل عاد سالما ؟ . أين مضى البراق ؟ ماذا فعل الفتى مهران يوم الرابع والعشرين من أكتوبر عندما هاجروا المدينة ، قاتل من ؟ من التحم ؟ هل غطاه سيف بن ذى يزن ؟ عملا دائمًا متلازمين ، تجاورا فوق دكة واحدة بالمدرسة ، وعندما عينا التحقا بمجلس المدينة ، في الدوريات القتالية التي

---

---

خرجوا فيها ، ينضم الفتى مهران إلى مجموعة الاقتحام دائماً ، ويبقى سيف بن ذي يزن في مجموعة الأستاذ ، ترى على من انقض الصاعقة ؟ من مضى ؟ من جرح ؟ المدينة في متداول نظره ، يمد يديه في حضنها كلها ، مجاهل أيامهم التي عاشهما بدونه . بعد عملية عبور الشط التي تمت منذ أربع سنوات وقام بها أعضاء الوحدة القدامى . لم يمض على تطوعه وقتاً سوى أربعة أشهر ، انتظرهم في مركز التجمع فوق الضفة الغربية . في الفجر بدت ملامح سليمان الحلبي قاسية ، كأنه سافر أيام طويلة بلا راحة . قال بابيحاز كالآوامر ..

« صرنا سبعة ..... » .

ضاعت كل ألفاظ الترحيب والحماس التي توقع أن يفوه بها .. قال سليمان الحلبي ..

« طومان باي » .

قال إنهم عادوا بجثمانه ، هل يتطلع سليمان الآن إلى احدهم ، يقول .. « صرنا ... ». يسكت ثم يقول بأسى موجع « ريح الجبل » ، لكن أين جثمانه ؟ ان مثواه غير معروف بالنسبة إليهم ، يود لو أتصل بهم ، يطمئنهم ، أثناء الحصار ودللو حق اتصالاً بهم ، لم يدر كيف . تملكته رغبة أن يعرفوا وجوده فوق عناقها ، كلها تطلعوا إلى الجبل

---

---

---

الذى يسد الأفق ، ويضع حداً للفراغ الجنوبي حول المدينة ، يود لو عرفوا الآن أنه هنا ، أنه باق حتى الآن بعد انسحاب العدو من الجبل ، أنه لم يفارق الصخور ، أنه يفتح الجهاز بين الحين والحين ليزعن ..

« أنا ريح الجبل ... هل تسمعنى؟ » .

لا يدرى كيف سيبدأ حديثه عندما يلتقي بهم؟ سيبحث عن الوجه الذى عرف معها الخطر ، ربما جهلوا شكله ، يتحسن لحيته التى طالت ، تعتقدت ، أحاطت بوجهه ، منذ حين لم ينظر فى المرأة ، ظلال الجبل تحمل المياه معتمة ، المقادير المتجمعة منها لا تسمح بانعكاس وجهه ، انه لم يغسل بصابون ، فى الشتاء لا أثر للغبار فرق عتقة ، ربما تغير لون جلده ، ربما تغيرت ملامحه . لكثرة ما تعاقب عليه من انفعالات . وتوقع عشرات المواقف ، لطول ما صفتته الرياح الملحـة ، الدائمة ، ربما جهلوا شكله ، تدركـهم حيرة ..

« أنا ريح الجبل .... هل تسمعنى؟ » .

يرجىء تخيله للقاء بهم لعجزه عن تصوّر ما سيحدث ، سيحكى لهم عن أيامه ... ، لا ... سيطلب كوباً من الشاي الساخن ، منذ أربعة وتسعين يوماً لم يذق طعاماً له قوام ، لم يقطع رغيفاً ، ولم يشعر بمرقد دافئ ، سيبدو الكوب الساخن غريباً بين يديه ، سيتحسّسه ، يقربه من

---

---

فمه ثم يعيده ، نسى ملمس الزجاج عند الشفتين ، دخول المشروب الحار إلى الفم ثم إلى المعدة ، نسى متعة الطعام مع الآخرين ، عندما يأكل الإنسان بمفرده يصبح الطعام متشابها ، لا يثير شهية ، لا يلحظ الفرق بين طعم وآخر ، عندما تكرر الأيام ولا يتحدث وقت الطعام إلى أحمس الأول ، إلى الصعيد الأعلى الذي يهوى قص الحكايات والنواود وقت الغذاء أو العشاء ، إلى أدهم الشرقاوى بطريقته الوثيرة في المضخ ومشاكله مع الفتى مهران إذا أكلـا من طبق واحد . الفتى مهران يلتهم الأكل بسرعة كواجب ثقيل فرض عليه ، سيقول إنه ذاق جميع أنواع الحشائش التي تنمو في الجبل ؛ القصير والطويل ، التحيل والغليظ الذى يفرز مادة تشبه اللبن ، افتقد الأحساس باللذاق بعد أسبوع من تكرار أكله هـا ، سيتطلعون إليه ، سيسأله أحمس الأول عن بداية الظروف فوق عتقة . سيقول أنه كلف بعهـمة خلف الخطوط ، لكن لكم ستبدو أصوات الآخرين غريبة في أذنيه ؟ منذ أربعة وتسعين يوما لم يحاور إنسانا ، لم يচـغ إلىـه آخر يجلس في مواجهته ، لم يـسأله مخلوق ليجيب ، لم يسمع إلا أصوات الراديو ، أصواتا مجھولة المنبع تتحاور عبر الجهاز في الشوان القليلة التي يفتحـه فيها ليرسل برقية أو يبلغ رسالة ، أثناء تواجد العدو واقترابـه من مواقـعه أصـغـى إلىـ أحـادـيـث لـيلـية بالـعـبرـيـة أـمـكـنـهـ التـقـاطـهاـ فيـ لـحظـاتـ هـبـوبـ الـريـاحـ بـاتـجـاهـهـ ، لـكـنـهاـ أـصـوـاتـ عـدـوـ ، لاـ يـكـنـ أـنـ يـحاـورـهـاـ ، يـتـلقـاـهـاـ

---

فقط ، يدون ما يدركه منها في ذاكرته ، قدماً ألح عليه تساژل ، هل يمكن للإنسان أن يتحدث ويسمع إلى صوته في نفس الوقت ؟ ولماذا يبدو الصوت غريباً في أذن صاحبه إذا استمع إليه مسجلاً ؟ ، بعد انسحاب العدو فوجيء بنفسه يتحدث بصوت مرتفع ، وبدا ذلك غريباً في صمت الجبال الأزلي الدائم ، تعيد إليه الصخور كل ما يلفظه محوراً ، غريباً ، ثم صمت عندما أدرك احتمال وجود أجهزة ما تركها العدو ، هل استمع إلى نفسه ؟ لا يدري ، سيرحرص على قص كل التفاصيل ، أي متنة نسلقاها في تحريك شفتيه ، والتعبير عنها ي قوله بيديه ، وإشارات أصابعه ، سيتحدث هادئاً ، واثقاً ، كل من يصفون أصدقاء ، سيقول إنه كلف بهمة خلف الخطوط في اليوم الثاني للحرب ، لم يعمل معه دليل من بدو سيناء . يعرفون أنه يحفظ الدروب والمسالك ، لو أغلق عينيه يستطيع رؤية الصخور عند الكيلو ٦٠ على الطريق الأوسط ، يرى المنطقة الواقعة جنوب سدر بكل ما تحويه من صخور ذات أشكال آدمية ، كأنهم رجال تاهوا في الصحراء ثم وقفوا يسددون البصر في أتجاه واحد ، لم يستطع النوم في هذه المنطقة ، قضى ليلته الوحيدة بها مستيقظاً ، في كل ثانية يحمل الليل نذراً مجهولة ، تطلع إلى السماء ورأى السحب تمر أمام القمر ، خيل إليه أن الحياة دبت في الحجارة ، يعرف زملاؤه أن المقاتل خلف الخطوط لا يتضرر معونة من أحد ، يصبح المنفذ والمخطط وصاحب القرار ، تناهى

---

الصلقات ، وينعدم العون المباشر ، يشده إلى دنياه ، إلى أصحابه ، إلى ما انقضى من عمره ، إلى ما هو مقبل ، ذلك النداء الموجز الذي يأتيه وسط البرامج الإذاعية في لحظة معينة ، تدب الحرارة الهادئة في عروقه إذ يصغى إلى صوت المذيع الهاديء ..

من الوادي إلى ريح الجبل ..

أحياناً يتسم ، كأنه يجاوب هذا المذيع الذي يجلس في استديو مغلق ، يتلو كلمات لا يدرى إلى من توجه ، وماذا تعنى؟ . لا يدرى ما أحدهما من أثر في روحه خاصة إذ ينبع الرسالة قائلاً .. الله معك .. في ساعة معينة يستطيع كل شير يحيطه ، حتى ظلال السحب وزحفها فوق الرمال ، وأثار الحشرات والثعابين ، ربما أخفت فيها بينها آثاراً آدمية ، يتتجنب الطرق المرصوفة ، يتأكد خلو السماء من الهيلوكبتر أشد ما يجذره خلف الخطوط .

من ريح الجبل إلى الوادي .. هل تسمعنى؟

عندما كان يحيطه الصوت ، عندما كان الرد يأتي فوراً ، يدركه حماس ، كأنه يمر بكل البيوت والطرق والأهل والمدن التي تعبّرها تلك الإشارات غير المرئية ، كلمة واحدة فقط .

نعم ..

ويبدأ أرساله ، يطمئن إلى أصحاب آذان من يعرفهم ، تردد صوته هناك ، آلة تسجل ، أفلام تكتب ، رموز تفك ، عندما انها مهمته خلف الخطوط عبر خليج السويس في الموضع المحدد له تماما ، لأمر ما ، ربما العادة ، ابتعد عن الطرق الرئيسية ، ربما لشعور خفي يكتسبه المقاتل خاصة رجل الاستطلاع ، فضل أن يطرق دربها مهجورا لينزل منه إلى السويس ، انتقل وثبا ، أوشك أحيانا أن ينجو حتى لا يتبع لراقب بالمنظار أو أجهزة الرؤية رصده ، في هذا الوقت لم يحمل بطاقة أو علامة ، هكذا من يذهب إلى خلف خطوط ، ربما تعرض لمضايقة لولمه أحد الجنود من زملائه ، في تلك اللحظات تخيل لقاءه بأصحابه داخل السويس . قفز ، جرى ، تخيل حديثهم معه في الليلة الأولى ، كيف نصبت المعابر ؟ كيف عاشت المدينة ؟ كم عملية قاموا بها ؟ ثم نومه في مكانه العتاد ، رائحة العرق ، رائحة الزيت المستخدم لتلين السلاح ، قطع الكهنة القديمة الالزامية لتنظيف المدافع والبنادق ، الطعام المعد بسرعة ، في ذلك اليوم ظن أنه سيلتقى بهم بعد دقائق أو ساعات على أكثر تقدير لو أنهم تحركوا إلى جهة ما ، أو نقلوا مقر إقامتهم . لكن تلك الدقائق استمرت أياما وشهورا ولا تزال ، لم يرهم حتى الآن ، ولم يفتح الطريق بعد لرؤية الأحباب ، قبل وصوله أطراف المدينة الشمالية لمح عربة مدرعة مما يستعمله العدو ، ماذا جرى ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ هل استولى عليها الرجال ؟ . قبل

---

---

المغيب في نفس الميعاد . تلا المذيع بسرعة ..  
« من الوادي إلى ريح الجبل ، الزم الأعلى ، المهد محاصر ، الزم  
الأعلى .. » .

بعد لحظات امتدت إلى مفتاح الأرسال ، لم يقم بالاحتياطات  
اللازمة ، رجأ لا دراكه أنه عاد من خلف الخطوط .  
« من ريح الجبل إلى الوادي .. علم .. هل تسمعني؟ » .

تساءل وقتئذ ، إلى أين سيمضي ، أين سيقى؟ ما هي المهام التي  
سيقوم بها؟ كيف؟ لم يتبق معه إلا القليل من المؤن ، باكتويقsmat ، ربع  
زمزمية ماء ، ما يرتديه أفرول كاكى صيفي خفيف ، لديه بطانية واحدة  
يطبقها ويحملها فوق ظهره ، مرة أخرى حرص على التوارى عن الأنظار ،  
ابتعد عن طريق السويس - الأدبية - قطع المنطقة الرملية بسرعة ، وصل  
إلى سفح عناقة المواجهة للمدينة ، يعرف كل شبر يبدأ من هنا ، تسلي  
الارتفاعات التي تدرج على مهل ، تزايدت سرعته ، ملدة ساعة كاملة لم  
يتوقف لحظة واحدة ، أنوار ذرات رمال التصقت بالصخور رجأ لم يرها أحد  
من قبل ، ودار حول المرتفع الجبلي الحاد الذي يشبه سنام الجمل ، لم  
يتوقف ألا في منطقة بقلب الجبل ، تشبه غرفة صخرية طبيعية ، تعلو  
جدارانها حوله حتى لتحجب بقية الصخور ، والقمة الحقيقة المرتفعة المطلة

---

على الوادي ، داخل هذه المنطقة جلس ، هدا قليلا ، المدينة بعيدة عنه الآن ، يمكنه لو وصل أعلى نقطة أن يرى الأضواء بها ، لكن جدرانا ضخمة من الصخور عزلته وقشذ ، في هذه الساعات الأولى لم يفكر كثيرا في السويس ، ما شغله كيف سيقضى الوقت الذى لا يدرى مقداره في عتاقه ؟ كيف سيقضى أمره بما لديه من مؤن ضيئلة ؟ في أيام التدريب الأولى جاء إليهم العميد أركان حرب عبد الله القلعاوى ، قائد المجموعة السابعة قتال ، يذكر ملامحه الهاذة ، وفترة المستقيمة ويداه تلامسان خصره ، يومها قال لهم « لا حدود لقدرة الإنسان على التحمل ، كما أن قدرته على التكيف هائلة » لا يدرى ماذا قام به القلعاوى خلال الحرب ؟ لا يدرى أين هو الآن .. هل .. حاول طرد الأفكار السوداء ، عندما فكر في القلعاوى خطر له دائمًا .. انه يحارب الآن .. سيقول انه في الليل الجبلى الوعر يختلف تفكير الإنسان ، ربما لتحفز حواسه كلها واستعدادها لتلقي المفاجآت الجبلية ، ما قد يأتي به الظلام ، ربما التقى جنديان صديقان في العتمة الحجرية واقتلا بذون أن يدرك كل منها حقيقة الآخر ، يعرف أن عتاقة مليء بذروب وممرات خفية لم يحط بها انسان واحد ، سيقولون له ولكنك أكثرنا معرفة بالجبل قبل صعودك إليه ، سيقول لهم أنه اكتشف طريقا في الذرى لم يتخيّل وجودها أبدا ، ومدقّات لا يمكن أن تظهر في أي صور تتقطّع من الجو ، واتفاق تؤدى إلى وديان بعيدة ير بها الإنسان

ولا يكاد يلحظها فكأنها ظللت كلها بنسيج عنكبوت غير مرئي كغبار حراء ، حتى اعنى مهربى المخدرات وأكثرهم استخداما للجبل يجهلون معظم أسراره ، سيسأله سليمان الحلبي عن حقيقة هذا الدرب المؤدى إلى مصر ، أقاويل كثيرة تتردد عنه ، يكفى ان يكتشفه ليصبح بعد مسيرة خمس دقائق أو سبع على أكثر تقدير في قلب مصر ، ينزل إلى ضاحية المعادى ، ثم يقطع الشوارع الممهدة ، ويدور مع المحنينات ، ويتأمل الشرفات ، والنواخذ المقتوحة ، والنواخذ المغلقة ، والضوء الناعم المنبعث من النجف خلف ستائر المسدلة والموحى بلقاءات أسرية دافئة ، وحياة مستقرة ، درب قصير يمضى عبره إلى الأمسيات بين الناس ، والمشى بشكل طبيعي ، وتأمل الفتيات مع أصدقائهن في الطرقات الجانبيه ، وإذا يمر أمام أبواب العمارات الضخمة تهب عليه رائحة رطوبة معتقة ، مزجج من رائحة السلام الرخامية المسوحة ورائحة الأخشاب القديمة ، وابنفاس أسرية ، ثم الذهاب إلى بيته ، تناوله العشاء ، يقطع رغيفا ، يمضغ ، ثم ينام فوق حشية قطنية ، يضع رأسه فوق وسادة . . . سيقول سليمان الحلبي انه لم يكتشف هذا الدرب ، لم يهد إليه ، في ليلته الأولى بدأ قصف جوى فوق المدينة ، أصغى متلفعا بالليل والجبل ، غارة متصلة ، يعرف صوت قنابل الطائرات خاصة الألف رطل التي تفجر المياه من باطن الأرض ، في لحظات التحامه بالعدو أو اجتيازه أقصى مراحل الخطر ، في

قلب جنون القتال الذى يمسك الانسان تماماً ، يركز عينيه وحواسه ليلتقط لحظة معينة لا تفلت من وعيه ، لحظة ملامسه الخنجر للرقبة ، الوضع الملتوى للجسم الأدمى بتأثير المفاجأة والرعب ، اتساع العينين ، ابتلاع اللعاب ، يذكر جندي عدو فوجيء بهجوم الجماعة على العربة المدرعة ، راح يجرى إلى الخلف والبندقية معلقة إلى كتفه ، لم يفكرا حتى في أشهارها .. المفاجأة أخطر ما يحويه ليل الجبل ، هذا ما يجب أن يحذره ، ستتجلى لهظات يتأمل فيها على مهل ، سيقول لهم أنه تسائل أول ليلة أثناء الغارة ، أين تنزل قنابل الألford رطل ؟ هل أصيب أحد زملائه ؟ هل دمر مقر الوحدة ؟ هل القصف ضد أهداف معينة أم انه طائش ، أعمى ؟ تأكد من وجود العدو تحت الجبل وحول المدينة ، استمرار القصف الجوى الليلى يعني أن العدو لم يقتحم البيوت والطرقات وأماكن الذكريات وبيت الأسرة ، ما استبد به القلق على الرجال .. لابد انهم في نقطة ما من هنا الليل الوسيع يقومون بعمل ما ضد العدو ، أين هم ؟ للحظات خاطفة يضاء الجبل باصداء الأصوات البعيدة كأنه البرق فوق بلاد مجاورة ، للساعة عين تبدو أشكال الصخور ، قرب الفجر الحت عليه الرغبة في رؤيتهم ، داخله شعور خفيف بالبهجة لمرور أول ليلة عليه ، مجىء النهار ، ولم يكن بعد قد عرف ما تعنيه لحظات الضوء الأولى وسكن الساعات الأخيرة من اليوم ، الساعات المتداة أمام الليل الوحشى ، استبد به القلق عليهم

عندما وصل إلى قمة الجبل وتطلع باتجاه المدينة ، رأى دخانا ، قدر حجم الحرائق ، سيقول لهم انه لم يتخذ أصحابا في المدرسة ، لم يتخذ صديقا حبيبا عندما عمل في استديو فكري للتصوير بعد خروجه من الدراسة أثر رحيل والده ، لم يشترك مع أبناء الحي في مغامراتهم ، لم يعاكس بنات حى الأربعين أو درب أو الماريوس ، اذا تصادف مشيه في الطريق خلف فتاة يسرع حتى يتتجاوزها لكيلا يراه أحد المعارف فيظن أنه يقتفي أثراها ، سيقول أنه لم يشعر بنعمة الصدقة الا بعد التحاقه بالوحدة ، اكتشف من جديد أبناء السويس الذين تطوعوا معه ، كأنه عرفهم لأول مرة مع أنهم زاملوه زمنا ، في معسكرات التدريب مضى الوقت كله عليهم معا ، في دوريات المشي الطويلة عبر الصحراء ، يضحكون ، يتحدثون عن الضباط ، عن الباشحاويش وقوته التي لا يلمحون غيرها ثم رقته المفاجأة نحوهم عندما حزموا عتادهم واستعدوا للالتحاق بالوحدة يومها أقيم احتفال قصير بتخرجهم ، اصطفوا في مربع ينقص ضليعا ، نزل الجاويش الى المدينة القرية ، اشتري الحلوى ، اشرف على توزيعها في الأطباق عند اعداد الميس ، عند باب المعسكر وقف يرميهم . أخذ سيف بن ذي يزن زمام المبادرة . عانقه .. أقبلوا واحدا ، واحدا ، رصد في عينيه دموعا ، عندما خرجوا معا في دورية سير لمسافة مئات الكيلومترات بالصحراء الغربية ، دليلهم النجوم وعلامات قليلة ترشدهم إلى نقطة

---

الوصول . توقف موج البحر ، اقترب مادا يله ، فساما قيضته وكأنها  
ميكروفون إذاعى ..

سيداق آنساني سادق ، على ناصية ما من الصحراء الغربية تلتكمى —  
تلتقى — بمجموعة من المكاتبين — القاتلين .

نكلدر — نقدر — نتعرف بسيادتك .

سليمان الخلبي ، أنا موظف بشركة النصر للبترول ، متطلع .

أخ سليمان .. ممكن تعطينا فكرة عن بطولاتك ..

قتل الجنرال كليير .. ورجعت بأسير اسرائيل ..

هائيل .. برافو .. انت لكتن — لقتت الأعداء دراسا لن ينسوه  
عندما كتلت — قتلت — الجنرال كليير الصهيوني ...

يا أفندي الجنرال كليير فرنسي .. قتلتة من مائة وسبعين سنة ..

لا يختلف الأمر كثيرا .. تفضل أي أغنية ؟

وهنا يصبح أحسن الأول ..

أنا كلبي — قلبي .. إليك ميل ..

يضحكون ، ينطلق موج البحر مغنيا وكأنه يلمي بالفعل ما طلبه

---

---

---

سليمان الخليبي وأحسن الأول ، في الصحراء يصبح أدهم الشرقاوى ..  
يا ريح الجبل .. تلتف هذه ..

يلتفت . أدهم يمسك بدانة مدفع قديمة لم تفجر ، كأنه على وشك إلقائها باتجاهه . تعلو يده ثم تنزل على مهل عسكة بالدانة حتى يضعها فوق الرمال . في الليل عندما يستعد بعضهم للنوم ، ويقى آخرؤن مستيقظون ، يتحذثرون عن المدينة الكبيرة ، وازدحام الشوارع في المغيب ، يقوم البرق قاتلا إنه بمجرد انتهاء الدورية ونزولهم أجازة سيسمش في شارع سليمان باشا ، يتفرج على الفتارين المصيصة والفتيات الجميلات ، ثم يأكل فولا وطعمية عند الديمياطى . هنا يقول موج البحر : أهذا كل ما تحلم به ؟ هناك من ينفق ألف جنيه في ليلة واحدة ، تسأعل الصاعقة عن حقيقة ذلك ، وهل يمكن صرف مثل هذا المبلغ في ليلة واحدة ، أكد موج البحر أن هذا يمكن في شارع المرم ، استفسر الصعيد الأعلى عن حقيقة ما يقال حول أسعار المبيت في فندق الشيراتون ، وهل تبلغ حقاً عشرين جنيهاً للسرير الواحد في الليلة الواحدة ؟ قال البرق ؟ إنها تبلغ أكثر من ذلك قال الصعيد الأعلى ، إنه لو نام في غرفة بهذه سيظل يرتعش طوال الليل . تسأعل الفتى مهران ، من الخوف أم من التكيف ؟ ضحكوا .. قال سليمان الخليبي هذا عالم غريب ..

لا يدرى ريح الجبل أين هم الآن؟ ربما يتجمعون معاً ، ربما عاد بعضهم إلى الوحدة . يود أن يرى أحدهم ، يشكر له بروقة الجبل ، خاصة برد العصاري المصحوب بالسكون القاصي ، يعرف أن الحركة تبلغ ذروتها في الطرقات قبل المغيب ، حتى في المعسكرات النائية البعيدة تتخذ الحركة ايقاعاً سريعاً مع اقتراب الليل ، وكأنها لمسات أخيرة يضعها الإنسان على ثمار مول ، ينقل الجنود أوان الطبيخ ، يذهب البعض إلى الحمامات ليستحمون بعد طابور الرياضة . يلعب آخرون الكرة ، يستعد الجندي المسؤول عن النادي لتشغيل التليفزيون . سكون عناقة ينأى بالمدن إلى عالم آخر . يجعلها تبدو ساحبة كنسمة خفيفة تمت إلى الحقول . لابد أن كثيرين من الجنود عادوا إلى زوجاتهم وأمهاتهم . يجلسون معهم الآن . بعضهم خرجنوا إلى الطرقات مع أطفالهم . أو ذهبوا لزيارة أقاربهم ، يبحكون عن الحرب كذكريات ، طومانبای خرج ولم يعد إلى أمه منذ أربع سنوات ، عندما مضوا إليها عال كل منهم هم اللقاء ، ماذا سيقول وأي كلمات عزاء؟ قال سعيد مهران إنه يمكنه جز رقبه جندي عدو ، لكنه لا يطيق رؤية أم زميل ذهب ولم يعد . قال سليمان الخلبي إن طومانبای مات ميتة نحسده عليها « لهم والباقي علينا نحن » ، طلب منه سيف بن ذي يزن الا يتحدث هكذا أمام أم طومانبای . أن يراعي شعورها . لاقتهم عند الباب ، نحيلة ، قصيرة القامة ، ولـ شياهـا مبكراً قبل

---

الأوان ، يعرفون أن والد طومانبای رحل وهي في الثالثة والعشرين ، تفرغت تماماً ل التربية ولديها . أشرفت أشجار الفاكهة المملوكة لهم في قرية الجنانين ، جادلت التجار ، ناقشت الرجال ، رفضت كل من تقدم إليها ، امتلأ وجهها بتعجيز وآثار العناء ، تلك العلامات التي ترى على وجوه الفقراء ومن قاسوا طويلاً ..

« أهلاً بحباب ابنى ... » .

بدت متتسقة أكثر من القادمين لعزائهما ، فذكر ربيع الجبل ، ما أقسى لوعة الأم التي تعيش موب ابنها بعد كل ما قاسته من آلام حمل ووضع وسهر ليال ، لم تبد أم طومانبای شيئاً من هذا ، بعد لحظات صمت دارت بعينيها في وجوههم ، سالت عنمن جاوره أو اقترب منه ؟ قال خالد بن الوليد أن كفه لامسه طوال العملية ، قال الحسين أن بصره لم يفارقه ، طلبت أن تسمع ما قام به ابنها ، تلاقت العيون في حيرة ، ثم استقرت على سليمان الحلبي ، بدأ يحكى وهي تسمع ، أبدت اهتمام عندما قال أن العدو أجهد نفسه في معرفة شخصيته لكثره ما كيده من خسائر ، قال انه يبينه وبين العدو دماً كثيراً . برقت عيناها عندما وصل سليمان الحلبي إلى لحظة رفع العلم على الضفة الشرقية ، في أول عملية عبور تم في وضع النهار ، قال إن العلم ما زال مرفوعاً وجند الموقع المقابل خصصوا كمية من الذخيرة لحمايته ، وجند المواقع القرية يغدون لرؤية العلم الذي رفعه

---

---

---

المرحوم أصغت صامتة ، وأبدلت بعض الاستفسارات . ثم أطرقت  
لحظات ، رفعت رأسها ..

البركة فيكم ..

أصرت على المشي معهم في الدرب الصغير المؤدى إلى طريق القرية  
العام ، عند انصرافهم قالت هامسة ..

طلوا على يا أولاد .. ولا تنسون ..

انقبض ريح الجبل ، هذه الكلمات القليلة يذكرها الآن ، تخسد  
وحدة مرة بعد رحيل حبيب ، تماماً كليل الجبل الم قبل والذي لا راد  
ولا مانع ، صار يزورها بانتظام ، في المواسم الأربع ، زارها مراراً سعيد  
مهران ، والحسين ، وسلمىمان ، وخالد بن الوليد ، والبراق ،  
والصاعقة ، وأول ضوء ، لكن ريح الجبل وأذهب على الذهاب ، يقصن في  
كل مرة تفاصيل مما رأه من طومانبای ، حتى أيساً عن ظروف اختياره لهذا  
الاسم ، وقال انه عاش للتاريخ ، وهو الذي اختار الاسم لسلمان  
الخلبي ، وللحسين ، قاتل الأم ، جاءت بصناديق كتب خشبية ،  
راحت تخرج كل كتاب بعناية ، تريه لريح الجبل ، أحياناً تمسك كتاباً  
مقلوباً ، قالت إن المرحوم لم يدخل على القراءة بعلم ، وأحياناً قالت له ،  
ارحم عينيك لأن البيت لم يصله ضوء الكهرباء ، قلب ريح الجبل

---

---

---

الكتب ، أعادت ترتيبها ، في كل مرة تقول ، عندما تأق فكأنني أرى  
المرحوم .

سيقول لها بعد أن يصله النداء أنه يعتذر لانقطاعه عنها ، وأن أحوالها  
شغله خلال حصار السويس ، إن قلبه حده بأنها لم تفارق الأرض  
سيطلب منها أن تساحه لأنه لم يأت بسبب غيته فوق الجبل ، لكنه لم ينسها  
أبدا ، فكر فيها كثيرا ، وتنى لو أنها دعت له بالسلامة ، سيقول لها أنه  
حرم من نظرة الأم ولفتها منذ وقت كبير ، سيحكى لها عن أيامه أيضا .

سيقول لأصحابه إنه لم يفاجأ بقتله طومانباي فوق الجبل ، بهدوء  
أحسى عددهم ،رأى معاطفهم الثقيلة بالوانها الزيتونية ، رشاشات  
العوزى القصيرة . البنادق الأمريكية سريعة الطلقات . كانوا محاربين من  
سلاح المظللات ، تساؤل ، هل سيقولون ؟ بدا واضحًا أنهم دورية  
استطلاع ، حمل بعضهم أوراقا ، أمسك أحدهم دفترًا عريضا يضم صورا  
جوية ، هذا يعني أنه لا توجد لديهم خرائط لمرات الجبل ومدقاته ..

سيستس البرق قائلًا ..

ومن أعد خرائط لعنة ؟ لأن دروبه محفوظة في أذهان رواده ..

سيكرر سليمان الخلبي سؤاله عن ذلك الدرب القصير الذي يصل  
إلى مصر ؟

---

---

سيقول إن الجبل سيظل لغزاً مستعصياً ، في طفولته رأى عناة حددت  
الدنيا ، لا مدن وراءه ، لا صحراء ، يعيش به جن أخبار ، وجن  
أشرار ، الشمس تسكن فيه ، السحب تتبع منه ، مع تقدم عمره سمع  
عن الدروب الخفية التي لا تبوح بنفسها إلا من تردد عليها مرات ومرات ،  
من يعرفها يصل إلى أي مكان في برمصر ، من يجهلها يهلك وهو على مرمى  
حجر من مصدر ماء ، أو مدق تراب يؤدى به إلى النجاة ، منذ ظهورهم لم  
يعد هم الوحيد مواجهة الشتاء فوق الجبل مرتدية افرولا صيفياً ،  
بلامؤن ، إنما أصبح عليه أن يواجه العدو أيضاً ، في البداية لم يقل له  
النداء كيف يدبر مأواه وطعامه؟ . في صباح حلم بالوقوف فوق أعلى  
نقطة . لكن ما شغله طوال هذه الأيام العثور على أصلح مكان للعمل ،  
ما أقلقه ليس ظهور دورية الاستطلاع المعادية ، إنما تلك الساعات الأخيرة  
من الليل ، عندما يمتلء الفراغ بشفرات جليدية تخز الجلد وت penetـ الـ  
الـعـظـامـ ، لا يذكر من قال يوماً أنه لا يستطيع النوم طالما بقيت أطرافه  
باردة ، يبتسم ، من يتخيـلـ نوعـيـةـ البرـدـ يـنزلـ آخرـ اللـيلـ هـنـاـ؟ـ يـقـدـ اـنـهـ  
أحياناً ، يـدلـكـهـ بـأـصـابـعـهـ حتـىـ يـعـيـدـهـ إـلـىـ مـكـانـهـ .ـ معـ البرـدـ يـزـدـادـ جـلـدـ الـخـدـاءـ  
صـلـابـةـ ،ـ فـيـ بـداـيـةـ اللـيلـ يـشـعـ الصـخـرـ دـفـنـاـ غـامـضـاـ سـرعـانـ مـاـ يـتـلـاشـىـ ،ـ فـيـ  
الـبـداـيـةـ تـسـأـلـ ،ـ كـيـفـ سـتـمـضـيـ الأـيـامـ هـنـاـ؟ـ خـيـلـ إـلـيـهـ أـنـ لـنـ يـحـتـمـلـ لـيـلـةـ  
وـاحـدـةـ ،ـ مـاـذـاـ سـيـقـوـمـ بـهـ؟ـ لـاـ يـحـتـمـلـ الأـيـامـ الـخـالـيـةـ مـنـ الـعـلـامـاتـ ،ـ فـيـ الـمـدـنـ

---

---

---

أو التدريب أو خلف الخطوط يلتزم الإنسان بمواعيد محددة ومهام معينة تكسب الأيام ملامح وسمات . تجعل هذا يوم اثنين وذلك يوم ثلاثة ، لم يتم بتدوين علامات تذكره بالأيام . عندما تواتت الليالي عليه ، لم يتجمد ، لم يمت ، اختلطت عليه الساعات والأيام ، كيف يدرك أن هذا النهار ثلاثة وليس أربعة ؟ أدرك أهمية ذلك عندما ظهرت دورية الاستطلاع المعادية ، ظهورها يوافق مضي سبعة أيام عليه ، فكر في حفر علامة بسيطة على الصخر في موضع معين ، لكن ربما لمحها أحد ، يدرك أنها ناج فعل انسان ، جمع سبع زلطات صغار ، يضع واحدة في يوم السبت قرب مكان نومه الرئيسي ، اثنين يوم الأحد قرب مكان البطاريات الاحتياطية ، الأيام تولى والبرد يتضاعف .

في اليوم التالي لذهاب الدورية جاءوا . سيقول إنه لن ينسى أبداً ملامح أول من رأهم قادمون للإقامة ، ليس لأنه يجتهد في التقاط التفاصيل ، حتى لا يضطر إلى استعمال أي نوع من التدوين المكتوب ، إنما لأنهم أول أفراد راهم وعليه متابعتهم . أحدهم غطى رأسه بقلنسوة صوفية ، يبدون من تحتها شعره الطويل ، جندي آخر أسود اللون قدر أنه من جنوب أفريقيا ، ثالث لم يزد عمره على سبعة عشر عاما ، ذو الشعر الطويل يتولى القيادة . هدف ممتاز لقتاصل ، لكن الظروف لا تسمح ، وأشار بيده مرات ، حاول الأسود الانحناء وأشعل سيجارة . لحسن حظه أنه لم

---

---

---

يدخن طوال حياته ، بمعنى أنه لم يلمن التدخين في ليلة حنة سويسية ، أو في فرح أحد الأصحاب ، دخن سيجارة واحدة ، لو افقد التدخين  
لأضاف هذا متاعب إليه .

سيقول إن وجود العدو أثار اهتمامه . أدرك أنه بدأ ي عمل . لم يعد الجبل حاليا ، الأمر مختلف عن عمله خلف الخطوط ، هناك الصحراء فسيحة كالبحر . هنا المسافات المستوية محدودة . أماكن المشي شحيبة . اتفقاء الأثر أسهل ، التعرض للرؤية محتمل أكثر . نسب الجبل تغير ، في الليل يزداد ضيقا ويدو مرتفعا أكثر ، ثم المفاجأة ، كل قمة تقفي المفاجأة . قبل مغيب اليوم فتح الارسال ، فرح ، أخيرا يعود اتصاله ، في الليلة نفسها قال المذيع بصوت هادئ .

« إلى ريح الجبل ، لسنا آثارك .. نتظر هبوبا أكثر ... » .

ثم بدأت موسيقى . لم يصفع إلا لحظات ، بمجرد انتهاء النداء أغلق الجهاز ، هز رأسه كأنه يخاطب شخصا غير مرئي ، ادخل الجهاز في الجراب الكاكى ، حمله بعنابة وحضر إلى مخبئه . في نفس اليوم جاء الصوت الكريه . إن طائرة الفانثوم مقيدة الأذير ، تثير غثيانا ، ربما روعي هذا في تصميم محركتها ، لكنها لا تثير الاحساس بالطاردة الشخصية ، مثل الميلو كبر التي تطير مباتطة هدفها حركة الانسان فوق الأرض ، جرادة

---

---

ضخمة معدنية ، جاء جنود كثيرون في ثلاث طائرات ، الأولى من طراز سيكورسكي ، الآخرتان من طراز - ايلويت - ، استمرت المراوح المعدنية في الدوران ، لم توقف ، وبدت دوائر من الظلال فوق الأرض ، أخرجوا صناديق متوسطة الحجم ، قرب السيكورسكي وقف ضابط القوة ، مرة أخرى نظر بعيد قناص ، في مثل هذه اللحظات يتتحول وجوده إلى عينين ، إلى ذاكرة ترصد وتعي . نصبوا خياما صغيرة صفراء بمطينة ببطاط أخر ييدو أنه عازل للحرارة والبرد . نفحوا وسائل مطاطية ، أشعل أحدهم موقداً ميدانياً بالآلة مستطيلة كمقبض العصا ، ابتعدوا عن الطائرة ، دارت المراوح بسرعة أكبر ، اهتزت الطائرات . مالت مقدماتها إلى الأمام . أحس بضغط الهواء الذي أحدثه مرور الطائرات فوق رأسه عندما توارى في حفرة ، منذ هذه اللحظة أصبح يعيش بينهم ، أحياناً يتبعون عنه ، أحياناً يقترب منهم حتى لا يفصله عنهم إلا أمتار قليلة ، في الليل يصغى إلى صيحاتهم المفاجئة يحاولون طمانة أرواحهم ، أو أصداء أحاديثهم الخافتة داخل خيام النوم ، سعال أحدهم ، أو غناء خافت يصمت فجأة عندما يتتحول اتجاه الرياح أو عندما يسكت صاحبه في صباح اليوم التالي طلب منه المذيع أن يعبر الوديان بقوة ، الا يهم شروق الشمس ، في المغرب أرسل ريح الجبل وصفا دقيقاً للقادمين الجدد ، قال إن ثلاث طائرات جاءت مع آخر ضوء ، تم إبرار مائة جندي وثمانية

---

ضباط أحدهم برتبة ميجور ، فوق القيمة رقم (٣) جاءت سرية من جنود المظلات ، انتشرت الأسلحة الفردية ، رشاشات جليل ، مدفع الماون ٨١ مللي ، لدى القوة جهاز للرؤية الليلية ، كميات ذخيرة ثم تسوينها عند النقطة « هـ » قرب متصف الجبل ، تم نصب مطبخ ميدانى إلى الشمال من — ك — ، وحام ميدان ، العدو يطلق مشاعل مضيئة ليلا بمعدل قذيفة كل ثلاثين ثانية لمدة نصف ساعة ، ثم يستأنف الاطلاق بفاصل زمني قدره عشر دقائق . وأحيانا خمس دقائق عندما يتحول صوت الريح إلى ما يشبه جرى الأقدام وحديث البشر ، يطلقون دفعات متتابعة من الرشاشات في جميع الاتجاهات ، يكفون تماما عن الفجر ، تخلل دفعات الرصاص طلقات حمراء كاشفة ، في تلك الليلة تلا المذيع رسالة موجزة ، من الوادي إلى الجبل ، قال إنهم يتبعون العاصفة .

سيقول إنه تمنى لو أمتلك معطفا كاكيا ، طوال أيامه الجبلية يقمع أى رجاء بالأفضل ، ولكن عندما يشتعل البرد ولا تكفى الحشائش الجبلية سد جوعه الدائم ، يتخيل جرا موقدا ، أو أغطية ، سقف حجرة ، تذكر رحلة مدرسية نظمت إلى عيون موسى عند وقوف الطلبة آخر النهار منتظررين أوتوبيس الرحلة ، اصطفوا في طابور عفو ، كل منهم يحاول الاحتفاء بالآخر ، أول فتى في الطابور لم يحاول الاختفاء وراء أحد ، نسى اسمه ، قصير ، لم يرتدى إلا قميصا بدون بلوفر ، عندما اقترب منه سمع

---

---

اصطكاك أسنانه . تصدى للريح وكأنه يثبت لزملائه أن نقصه سترة ثقيلة  
لا يؤثر عليه .

انه يكاد أن يرى زملاءه يتسعالون بعد عودته . كيف احتمل الشتاء  
كله فوق عتاقه ؟ كيف نام ؟ .

سيقول للحسين ، وللنقى مهران ، للبرق ، للعاصفة ، لخالد بن الوليد ، لسليمان الخلبي ، لأم طومانبى ، للصعيد الأعلى ، لأدهم ، لسيف ، انه نام منحنينا حتى لتلامس ركبتيه ذقنه . ساعات نومه غير متصلة ، بعضها في النهار ، الليل فرصة للحركة الآمنة ، يتجمع فيه العدو . لا يتشر ، سيقول إنه غدا ذات ليلة فوق صخرة مدينة قرية من حافة الجبل ، استيقظ وللحظات قصار خيل إليه أنه يرقد فوق وسادة ، ويطلل سقف ، ويصنى إلى البرد في الطرقات من خلال جدران ونوافذ مغلقة ، عندما رأى النجوم الكثيفة ، وأحس بالفراغ أدركه خيبة لم تدم إلا للحظات ، في تلك الليلة فكر طويلا في صوت غامض سمعه خلف الخطوط في سيناء ، وأصوات الصحراء محدودة جدا بالقياس إلى أصوات الجبل ، لكن هذا الصوت لم يدر ما هو حتى الآن ، صوت مكتوم ، متقطع ، آئين مخلوق ضخم ، عريض ، هائل الحنجرة ، كأنه يصدر من كل مكان في الصحراء ، فهو صوت غولة خرافية تأمل لسبب ما ؟ أم أصوات غامضة ؟ تدركه رعدة كلما فكر فيه . في الليل زحف حذرا إلى الشفق

---

الصغرى حيث تجتمع قطرات المطر ، إلى الحشائش الجبلية ، الناظر من بعيد يخيل إليه أن الصخور مجده ، الاقتراب منها يكشف أنواعاً من الزهور ، والخشائش ، والزهور الرقيقة التي لم تقطف ، تنمو وتموت بعيداً عن يد الإنسان ، تأمل أنواعاً لا حصر لها من السحالي الملونة والحشرات الغربية ، وفراشات كبيرة لا تعبأ به إذ يد يده محاولاً امساكها . كثيراً ما تابعها أثناء تناولها طعامها ، بالضبط في الساعة ١٣٠٠ . صوب منظارة عكس اتجاه الشمس حتى لا تتعكس أشعتها على عدستيه وتحدث بريقاً يلفت الأنظار إليه ، رأى بخار الشورية الساخن ، أحسن بطاقة الخبر المستطيل ، رأى يوماً جندياً المان الأصل يقشر برتقالة ، رصد مكان تساقط قشور البرتقال حتى يزحف ليلاً ويحاول التقاطها ، هذا الجندي ينهي طعامه عادة بسرعة ، أحياناً يده يده إلى أطباق زملائه ، يخفونها عنه بأجسادهم ، أو يزجرونها . يقوم آخر يجد أنه فرنسي ، يبدأ في غسل يديه بالصابون ، يتدفق الماء من إناء البلاستيك برتقالي الشكل ، يتنهى بصنور صغير لا يسمح إلا لخيط نحيل من المياه بلا تدفق ، عليه كتابة لونها أحمر الإنجليزية تشير إلى مصنع هولندي في أمستردام ، يطيل الفرنسي غسل يديه ، يتمضمض أربع أو خمس مرات ، قصیر القامة ، التحيل ، لا يدرى ريح الجبل إلى أي أرض يتنمى ؟ يجد غير مهم بغضيل يديه أو فمه ، البن دقية سريعة الطلقات لا تفارق كفه حتى أثناء تناوله الطعام ، أو

خلال اضطجاعته داخل الخيمة ، شاب آخر ييدو أنه لم يتجاوز السادسة عشرة ، لحيته لم تنبت بعد ، يتطلع إلى أنحاء الجبل كثيرا ، بل أن عينيه لا تفارقان الصخور البعيدة حتى عندما يتحدث إلى زملائه . أو يجلس بينهم ، يشد على شفتيه ، كأنه يتوقع حدوث شيء ما . في الصباح تبدو خطواتهم أوسع ، يتحركون هنا وهناك ، يتفحصون الجبل ، يهدون لغافات الأسلاك الشائكة ، رصد ربع الجبل عدد اللغافات ، وموقع رص الألغام المضادة للأفراد التي بثوها في المدقفات ، لا حاجة بهم إلى ذرع الألغام المضادة للدبابات أو الآليات ، تضاريس الجبل موائع طبيعية ، لاحظ أنهم نشروا نوعا من الشراك الخداعية ، خاصة بالقرب من القمم ، شراك على هيئة علب مربى ، علب سجائر ، كاميرا ، أقلام حبر ، استنتاج أنهم لا يحكمون قبضتهم على الجبل ، لا يسكنون بخفاباه . يتذعون هجوما في أي وقت ، يأملون في التقاط أحد أو بعض أفراد الدوريات المقاتلة ، أو رجال الاستطلاع هذه الشراك ، في الصباح يروحون ويجيئون بدون معاطف ثقيلة ، لا حظ أنهم يرتدونها عند تناولهم الطعام ، ربما لأن ما يتناولونه يسبب برودة الجسم وتراخي الأطراف . بعد الظهر لا يمكن رؤية أحدهم يمشي منفردا ، يتجولون في جماعات ، إذا تصادف وتتأخر جندي أو اثنان بخطوة أو خطوتين يتلفتون إلى الجبل . يسرعون حتى يجادلون رفاقهم . كل منهم كأنه يختفي بالأخر من طلقة مفاجئة قد تحيط به ،

---

تصل إليه أصواتهم مع اتجاه الريح نحوه ، ثم تبتعد عندما تولى الريح بعيدا عنه ، لاحظ وجود جوارب نسائية وملابس داخلية معهم . لكنه لم ير صد وجود أي امرأة . مع اقتراب الليل يعودون إلى الخيام . لمح أحدهم يكتب ، من ملائمه ، وتوقفه بين لحظة وأخرى ، قدر أنه يكتب خطابا ، أو شيئا خاصا ، لاحظ أن قائدا القوة يمشي دائما بين جنديين ، عندما يبدأ الليل الجلي في النزول يختفون كلهم داخل الخيام ، لا يبقى منهم إلا المكلفوون بالخدمات ، لا ينفرد أحدهم بنفسه ، يتجمعون ، تعلو النداءات بالعبرية ، بالإنجليزية ، بالفرنسية ، بلغات أخرى لا يعرف منها حرفًا ، حتى الخيام تبدو كأنها تتوارى في بعضها ، رصد قدمين جندي داخلا خيمة منخفضة . حدد الخيمة التي يأوي إليها قائدا المجموعة . لم يلحظ مرحا متبدلا بينهم ، ولم يسمع ضحكات حتى عندما يتجمعون داخل مراقدتهم ، لم ير ابتسامة تصدر عن أحدهم في وجه النهار ، الشفاه مضمومة ، الأكل بسرعة ، تجنب الصعود إلى القمم ، ربما لا يبعادهم عن مجال الرؤية الواضحة . لكن من الواضح أن مرمى نيرانهم يغطي تلك القمم .

سيقول إن أيامه الطويلة عرفت الفرح ، تمنى لو معه سعيد مهران أو سيف بن ذي يزن أو أحمس الأول ثم البراق ، تمنى لو جاءوا كلهم إليه ، فالفرح بحاجة إلى آخر قريب ليظهر ويتالق ويبيح . لكنه في وحدته عرف

---

فرحة هو . الذى يديه بدون انتظار رد فعل من آخر ، فرح غامر كاد يدفع به إلى المشى متتصبا على قدميه بلا انجذاب ، بلا حذر ، أو التفاف من أعلى الصخور إلى الوادي ، أو تحريك الأيدي والأطراف كما يشاء اذا لا أحد يرقب أو يمنع أو يلوم . فرح كالريح الجبلية الجارفة التي تهب عند الفجر . يختلف عنها يشعر به من بهجة اذا يتلقى رسالة ، أو ينهمك في أرسال معلومات يدرك أن هناك من يتلقاها في نفس اللحظة . حدث ذلك لحظة استطاعته تمييز صوت طائرة الميج ٢١ . في البداية حومت صوب الجبل ، ثم ارتفعت في خط منحنى إلى مركز السماء ، بدت نقطة بيضاء متحركة في الفراغ ، وعندما غيرت اتجاهها لمع جسمها المعدن لبرة كالبرق ، ثم بدأت تهوى ، كان الطيار فقد كل سيطرة عليها ، أمسك أنفاسه ، استقامت فجأة . بدأت طلقات المدفعية الخفيفة المضادة تخداش زرقة السماء بقبضات من دخان ظلت معلقة وكأنها من حجارة . قلق ، هل أضافوا مدفعاً جديداً في موقع لم يبلغ عنها ؟ دارت الطائرة في اتجاه معاكس ، تخبيط الطيار الرمزي المؤثر لمدفعية العدو ، ابتسم وحيداً ، انه شغله ، نتاج عمله . معلوماته . اختفى صوت الطائرة ، تماماً ، هل ذهبت ؟ لكنه لمع الجسم المعدن منخفضاً حتى ليكاد يلامس سن الجبل ، اندفع فوقه بلا صوت ، ميز كابينة الطيار ، وتقسيمات الجناحين ، بعد ابعاد الطائرة علا صوتها متربدة بين الصخور ، هديراً مدرياً بعشرات

---

---

الأصداء منطق الجبل وتتوالت طقطقات المذاق المضادة للجو  
فبدت كمساة يحاولون اللحاق بسيارة تجري مسرعة ، بعثت فيه حركة  
الطايرة دفشا لا يت إلى شهر أو زمن ، كأنه رأى كل الأصحاب  
والأحباب ، عائق الحسين ، وشكرا اليه برودة الجو آخر الليالي ، ربت  
الفتى مهران على كفه مبتسما ، « أنت لها » انحنى عليه سليمان الخلبي ،  
قبله ثم صمت ، هكذا اعتاده اذ يعبر عن عواطفه فجأة ثم يسكت ، ودلو  
رأى افراد العدو كلهم الطائرة ، سينظر اليهم من مكمنه آخر النهار متباها  
« لقد حلقتنا فوقكم » ، هذه الطائرة تضم شابا جدعا ، مراوغًا ، جريئا ،  
ربما التقى من قبل ربما احتكت ايديها في طريق عام بالقاهرة ، بالسويس .  
ربما تواجهها في قطار ما . ربما مرافى شارع واحد يوما ، في نفس اللحظة  
يود لو تعرف اليه دقيقة فقط ، يجدثه عن البهجة التي غمرته أياما متالية  
بعد تحليقه ، لكنها ربما لن يلتقيا ولن يعرف اسمه حتى . سئّرك الصور  
الملتقطة ما أرسله من معلومات ، سيقول الطيارون أن دقة تحديد مواقع  
المدفعية المضادة جعلتهم أكثر أمنا .

طوال اليومين المتالين لتحليق الطائرة ظل بصره يروح وينجع إلى  
الفراغ ، متوقعا ظهور الطائرة فجأة ، امتلاً الجبل بهديرها أو انزلاقها  
الصامت ، لحظات الفرح الأخرى جاءته ليلا . عندما اخذ وضع الجين

---

لينام ، عندما تحسن ركبته العارية ، برد ديسمبر القاسي تبدد عندما اصغى إلى طلقات متبادلة ، حوار ناري ، العدو لا يطلق النيران من طرف واحد ، قفز واقفا ، التف حول الصخرة التي يختمن بها من الريح ، صعد مدقا صغيرا ، في نهايته يشرف على موقع العدو ، ميز طلقات الجريوف الكلاشنكوف ، طلقة آر- بي - جي اخترت الظلام وضجيج الأسلحة الأخرى ، طلقات حارقة أصابت الحيام ، اشتعلت جدرانها ، تناقلت الرياح السنة اللهب فيها بينما ثم استقرت في اتجاه واحد ، تترافق السنة نارية على الصخر البعيدة ، خيل إليه أنه لم يلح حيوانا يعود ، صرخات تعلو ، بعضهم يندفعون في اتجاهات مختلفة ، تدافعت الدماء إلى رأسه . تبدد آخر ما تبقى من الأحساس بالبرد ، انفجارات حادة ، ثانية ، قبضات حمراء تتطاير في الهواء متواالية كالصواريخ النارية ، عرف الرجال أماكن تشوين الذخيرة . لم يخطئوا واحدا ، يقرأون الظلام ، قبض بيده على حافة الصخر ، على ضوء اللهب يمكنه رصد المواجهة التامة ، المبالغة ، توقف جندي يهودي ، طوبيل ، رفع بيديه إلى أعلى بدا في اللهب بلا ملامح ، ظل أسود متحرك ، صراخ ، صرخة قصيرة ظل آخر يندفع في اتجاه ريح الجبل ، يبدو أنه فقد القدرة على التحقق من الاتجاه ، يندفع إلى الاتجاه المعاكس ، يسقط إلى الأمام وكأنه يرمى على شيء محاولا الامساك به ، تختلط الظلال ، الصرخات ، أدرك أن اقتحام الموقع يبدأ ،

هذه الظلال التي تداخلت تبدو في شب النيران كمخلوقات قدمت من عالم غريب ، من يدرى ربما يهاجم الحسين الآن ، ربما يقتتحم الفقى مهران خيمة أرسل وصفها منذ أيام ، سيف بن ذى يزن ، خالد ، الصاعقة ، البرق ، البراق ، كلهم الآن في الجبل ، عناقة في هذه اللحظات فيه آخرون يعرفهم ، يتكلمون مثله ، اذا صمت لحظة قد يدرك الواحد منهم ما يحول بعاظره ، ربما اقترب منه ، احاطه بيده متسائلا « لماذا تبدو مهموما ؟ » ملامحهم يعرفها جيدا ، لا يوجد بينهم المان ، فرنسي ، مجهول الجنسية ، سليمان الحلبي يتقدم الرجال ، يتقدن القتال المتلاحم حتى ذاعت شهرته في كافة وحدات القتال الخاصة ، أيدى ترتفع ، هل تتضوى الخاجر في اللهب المتزايد ؟ يعرف سليمان الحلبي أحوال الرجال أثناء العملية ، اندفاع سعيد مهران – وبسالة الحسين ، وقدرة البراق الفائقة على التنقل السريع مطلقا نيرانه من مواضع عديدة ، قدرة الفتى مهران على استعمال السلاح الأبيض ، دقة أدhem الشرقاوى المخيفة في اصابة الهدف ، اذ يتتحدثون عنه يقولون : « الطلقة منه تساوى رجلا .. » آه لو اندفع مناديا كل منهم ، سيقول انه لم يشعر أنه موثق الا في هذه الليلة ، انتبه إلى نفسه عندما استنشق رائحة بارود قوية جرحت صدره . سعل ، تابع الاقتحام مفتوح الفم ، لو عرف أى طريق سيسلكونه عند العودة ، فقط ييادلهم الكلام لحظات ثم يولي ، يعانق

---

---

الحسين ، يشد على يد سليمان الخلبي ، يقول له « كل شيء تماماً يا أفندي ». هل يتراكمون بالجبل ؟ هل يختبئون بإحدى مغاراته ؟ هل يعرفون بوجوده ؟ هل يحملون إليه مداداً ؟ هل في خطتهم الاتصال بهم ، لورافهم قليلاً ، عندما ينظرون إلى أفرونه الصيفي ، إلى تزقه . إلى اتساعه عليه إذ نحل جسمه ، سيخلع البرق معطفه وتركه له ، سيقدم الحسين إليه كل مالديه سيقول إنه اعتاد برد الجبل وطعم حشائشه سيحاول منع ترقق دموع في عينيه حتى لا يضروا متأثرين .

لم يستسلم طويلاً لأفكاره ، عليه عمل يجب أن ينجذبه في ظروف مختلفة ، عند الفجر استمر جنود العدو يطلقون مدافع رشاشاتهم وقدائف الماون في كل اتجاه ، اضطر إلى الانبطاح أكثر من مرة ، انفجر دانات الماون فوق الصخور الحادة يدفع بالشظايا إلى مسافات بعيدة . زحف ، جرحت ركبته . لم يتوقف ، يعرف أن فرصته في استطلاع الموقع حتى أول ضوء ، مع بداية النهار سيحاولون حصار الجبل ، مع الضياء الأول رأى الخيام المحترقة واحصى عشر جثث ملقاة متباعدة ، بدا بعضها وكأنها أجساد آدمية لم تستيقظ بعد ، ظهر جنديان يحملان نقالة عليها جندي مبتور الساق ، يصرخ .. آه .. آه .. وبدأ صوته نحيلاً ، متسلحاً ، غريباً في بداية النهار الجبلية ، من خلف صخرة ظهر جندي آخر يستند بذراع

---

واحدة إلى أحدهم ، ثمة يقع سوداء فوق الأرض ، وأثار مادة كيماوية لاطفاء الحريق ، وصناديق ذخيرة فارغة . أدوات طعام منفرطة . حقائب طبية ميدانية مفتوحة ، شرائط ذخيرة لمدفع « جليل » الرشاش متاثرة لم تمس ، مع بداية تزايد الحركة في المدن البعيدة ، أبرق ريح الجبل إلى الوادي رسالة عاجلة ، اشتعلت البيران في مركز القيادة ، ثلاثة عشر قتيلا ، ضابطان جريمان ، ثلاث طائرات من طراز « إيلويت » نقلوا عددا من الجرحى ، تدمير الموقع ، مركزاً لش gioin الذخيرة ، مركز القيادة .

أدرك أنهم سيقلبون الدنيا بحثا عنه ، بدا أمامه أكثر من تصرف . أما اختفائه في مكان شديد القرب من الواقع ، أو ابتعاده إلى مكان قصي يمكنه ممارسة عمله منه ، بدا قربه أكثر عرضة للخطر وعائقاً بالنسبة لاتصاله المباشر ، قرر الاتجاه إلى القطاع الجنوبي من عتقة . سيمجد حركته يومين ، ثم يعود أشد قربا . قبل تحركه ألقى على الأسلال الشائكة المقصوصة . يرصنون الجثث إلى جوار بعضها ، تعلو فجأة صرخات حادة ثم تقطع فجأة ، يظهر جنديان يحملان ضابطاً برتبة ملازم فوق نقالة . يرفع يديه وكأنه سيمسك بشيء ما ، الحركة سريعة مذعورة ، احتل ميعاد الأفطار اليومي الثابت ، في تلك اللحظة بدا كأنه يلمع معنى غير مرئي فوق الموقع كله . معنى أحسه من قبل . لكنه لم يجد التعبير المباشر عنه . انه أمام عدو ، من خلال حركتهم ، سخنهم ، متابعته لأحاديثهم اليومية ،

لطريقة أيديهم في التلويع والاشارة ، تناولهم الطعام ، ثم ما لحقهم من اضطراب ، تدمير ، هذا عدو . وهل يبدو المعنى جديدا ؟ ربما سخر منه أحدهم الشرقاوى لو سمع أفكاره . سيقول ريح الجبل أنه هاجم العدو من قبل الليل . في وضح النهار ، قضى خلف الخطوط أياما طويلا ، لكنه لم يعايش العدو بمثل هذا الترب ، لم يتبع ملامحه بمثل هذه الدقة ، لم يرصد نظام حياته ثم اختلاها مثلما فعل في عتاقه . خلال الهجوم لا تناح الفرصة للرصد المتأن ، يجرى كل شيء بسرعة البرق ، في أيامه الجبلية رأى تلك السجن الغربية عنه . أصنف إلى الألسنة الموجعة . منها جرى فلن يقف أحدهما أمام الآخر ويتركه يمضى ، سيحاول كل منها القضاء على الآخر هذه الخيام المنصوبة ، الأسلاك الشائكة ، الشراك الخداعية ، المعدات المطاطية ، المجمعة من كل عواصم الدنيا ، كل هذه الطلقات والفوهات والأحاديث المتبادلة عبر أجهزة إتصالهم ، كل هذا ، الغرض منه ادخال قطعة حديد ساخنة إلى جسده . إلى جسد الحسين ، إلى أحسن الأول ، إلى سيف ، إلى سليمان الحلبي الهدى ، الواشق ، الموحى ، إلى عبد الله القلعاوى ، ربما يعرف العدو بعضهم ويجد في أثرهم . عندما ول وجهه تجاه الجزء الجنوبي لازمه فكرة أن هؤلاء .. عدو .. حامت طائرات الهيلوكبتر كما توقع ، عادة لا يغير موقعه إلا مع جيء قوات جديدة للعدو ، يغدون رجالهم في الجبل كل سبعة أيام ، لا يكاد يحفظ ملامح

القوة حتى يتم تغييرها . . أيام وصوفهم الأولى تتزايد طلقاتهم ، يلتزمون الحذر لأن أفراد القوة الجدد تتباهم رغبة في استطلاع ما يحيطهم ، يكترون من الحركة في اليومين الأول والثاني ، ثم يتصرفون ببنقائمة أكثر مع اليوم الثالث ، لم يدر إلى أي اتجاه مضى سليمان الخلبي والرجال ؟ لم يتحقق اتصالاً بهم ، ربما التقطتهم طائرة هيلوكبتر ، تناولوا انفاسهم الساخن في ميس القاعدة ، بعد تقديم تقاريرهم عن المجموع يشيدون بالمعلومات التي يرسلها ريح الجبل ، من خلالها عرفوا المداخل الخالية من الألغام إلى القاعدة . معرفتهم أماكن النوم والختام الخالية المنصورية بغرض الخداع ، من موقعه الجنوبي عمل في نفس اليوم ، وجه رسالة من ريح الجبل إلى الوادي ، أجرى العدو سلسلة من التفجيرات بغرض إنشاء موقع ملاحظة جديد . تم تدعيم القوة بسرية من جنود المظلات . تقوم الهيلوكبتر المسلاحية بدوريات منتظمة في السادسة إلا عشر دقائق . التاسعة . العاشرة والنصف . الرابعة مساء ، لم يطر الطيارون على ارتفاعات منخفضة ، حوالي الثامنة مساء سقط المطر فجأة ، بزيارة ، وبذا صوت أصطدامه بالصخور كأنه صدى لطلقات بعيدة ، انكمش الجبل ، وتحركت السحب بشدة في المساء ، حجبت النجوم الكثيفة ، ولا مس ببعضها قمة عناقة . اقتضم البرد عظامه في موجات متتالية حتى لا مس نخاعه ، قطرات المطر كأنها تسقط في قلبه . بدأ الماء يتجمّع في خيوط تتخذ طريقها بين الصخور

---

محدثا خريرا ، غامت عيناه . بدأ في أذنيه وشيش منبعه داخل رأسه مصحوب بصفير نحيل حاد متصل ، هل سيموت ؟ فكر في الجهاز . لحسن حظه انه يحفظ الشفرة ، ستروح معه ، عند متصف الليل خف الوشيش . اصغى ، أهوا الوهم ؟ هل بدأت التخيلات ؟ ماذا إذن ؟ في بداية الليل ظن الموت قريبا وها هو يعيش ، ويأمل في قضاء العديد من المهام غدا ، وبعد غد ، لا .. ليس هذا وهم ، الجبل يردد الصدى الذي اخترق المطر ، ثمة نداء يطلقه جندي ما ، في البداية بدأ قصيرا موجزا ، وعندما تكرر ازداد طولا ، زحف فوق الصخور المبللة بالليل . وللو اخترت عيناه السوداء . حتى ضوء النجوم الباهت تواري خلف الغيوم الثقال ، انتظر حتى يتكرر النداء مرة ثالثة ، ثم يحاول رصد اتجاهه ، سيثبت فوق أعلى الصخور إليه ، سيحدّر صاحب الصوت أولا ، من الصباح لأن العدو في الجبل ويرصد الخطوة ، والخمسة . ثم يزوده بما يطلبه من معلومات ، يتحدث ، يتكلم يقول الفاظا ويلقى ردًا ، ويتأمل ملامح مألوفة ، سيتمنى لو أن لديه ما يفيض ليعطيه ما قد يحتاج إليه لكن .. سيرى ابتسامة الود ، ثم العناق الذي يبدل البلل ، والبرد الكاوي ، متى يحين النداء الثالث ؟ لماذا تأخر في رصد مصدر الصوت ؟ لماذا لم يتبعه بعد أول نداء ، يلوم نفسه ثم يصغي ، أين ، متى ، حتى الفجر لم يচفع إلى أي صوت ، ربما عشر زميله على من نادى عليه . قابل النهار بخيبة ، قرر

---

---

التجول في لحظات اشراق الشمس الضئيلة لتجفيف ثيابه ، خاصة أنها التصقت بجسده ونفذت رائحة القماش إلى أنفه ، ولاستطلاع موضع غزو الحشائش التي يمكنه أكلها ، سيفض لزملائه فرحته عندما رأى قشرة صفراء مستقرة بين الصخور كالنداء ، كالرسالة ، كالشفرة التي تطلب حلا ، قشرة ثمرة يوسفي . دار حولها على أربع ، بالتأكد ليست شركا خداعيا ، كلها في متناول بصره ، لا تتصل بشيء قريب أو بعيد ، لا ينبع اليوسفي بهذا الحجم إلا في شتاء مصر ، ومصر فقط ، أحد الرجال القاهما ، ربما أثناء تجواله ، خلال قيامه بهمة ، التقى بها بسرعة ، ضمها إلى يديه . بسط راحتيه ، تأملها ، تشمها ، قضم قطعة منها ، بدأ الطعم الحامض غريبا في فمه ، دار بعينيه حوله ، بعد عشر خطوات قطعها منحنى الظهر لمح ثلاثة بذور ، لكنه لم ير أثرا بعد ذلك ولمسافة أكثر من كيلو متر في اتجاه الوادي ، وإلى طريق المدينة ، في هذا اليوم فاجأته الوحشة مع جيء الشفق إلى السهام الصافية المغسولة بالطэр ، سيقول إنه احتمل ، سيدور الحديث بين زملائه داخل مقهى بين ضجيج لاعبي الورق . مرور السيارات في الطريق . دوران الملاعق في أكواب الشاي ، قرفة النراجيل ، سيتابع حركة الناس في الطرق ، إيقاع الحياة في الأماكن الآمنة . وحركة الحياة التي لا تهددها أخطار ، ولا تسوء فوقها

---

---

وحشة جبلية ، سيصنف دائيا إلى الراديو في نفس الميعاد ، ربما جاء النداء بعد حين ، بعد سنة ، بعد عشر سنوات ، بعد أربعين عاما .

### من الوادي إلى ريح الجبل ...

وعندئذ يفارق أمن المدن . يرحل إلى مكان يطلب منه التواجد فيه .  
سيقول إنه قبل صعوده عتاقه لوعرضوا عليه قضاء ليلة واحدة مقابل ألف جنيه لرفض ، وها هي الأيام تتجاوز المائة ، هل سيفتح نافذة بيته يوما وينتطلع إلى عتاقة البالى أبدا . عتاقة الراسى ، ويسأل نفسه ، هل قضيت كل هذه الأيام الشتوية فوقه ، عندما يسألونه عن أشد ما أوجعه ، سيقول ، حفوت النداء خلال الأيام الأخيرة ، لكنه لن يسترسل في سرد أوجاعه ، سيغير الحديث . سيبعد الضاحك إلى قلوبهم ، تماما كما حدث أثناء التدريب . سيقول إذا استمع إلى نكتة أو حادته طريفة يدخلها ، يجهد نفسه في تذكر تفاصيلها ، يمكّنها لزملائه في المعسكر ، سيقول إن أثناء استطلاعه للقطاع الجنوبي من عتاقة ، توقف فجأة ، تواري في شق ضيق بالجبل ، ثم عاود النظر ، أمامه ، بالتجاه الوادى ، على بعد حوالي نصف كيلومتر ، فوق الصخور النارية المدببة الحادة استقرت عربة محزررة ، تقفت بوجهتها ، كيف جاءت إلى هنا ؟ لا يمكن للجزير صعود هذا المنحدر الوعر . ولا يمكن أن يتحرك فوق هذه التضاريس الوعرة ؟ ماذا .. هل ينصبون له كمينا ؟ أهله عربة هيكلية جاءوا بها للتضليل ،

---

ضيق عينيه . لم يختفي ، فعلاً عربة مجترزة ، تقف هامدة ، خالية من الحركة ، لا يوجد جندي واحد حولها أو داخلاها ، هل أنزلتها إحدى طائرات الهيلوكبتر . متى . أدركه حيرة . بدا الجبل كله لغزاً مستعصياً على الاستطلاع أو الاكتشاف يفاجئه كل لحظة بما هو غير متوقع . هذا الصمت الذي تغرق فيه العربية يحيره . ربما يكمرون بالقرب منها ، ربما تحقق خلوها ، عندئذ يمضى إليها ، يفتشها ، ربما عثر على شيء ، تسلق المرتفع قفزاً ، غابت العربية لحظات عن عينيه ، بدت الظلال ثقيلة لها قوام ، تناهى بالعالم عنه . كأنه أفلت من جاذبية الأرض أو سبع في فراغ ، عندما أطل من بين الصخور ليرصد العربية كاد يضحك .. ما ظنه العربية مدرعة ليس إلا صخرة تحتها الطبيعة بعنایة ، سوت أطرافها حتى تبدو من بعيد كمجترزة ، قطعة من الصخر الرمادي المصقول يختلف صخره عن طبيعة المكان ..

سيقول إنها ليست المرة الأولى ، فأثناء تطلعه من خلال منظاره المقرب ، رصد بقعة سوداء ضخمة في الوادي ، بقعة ثابتة . مستديرة الشكل ، حارق تحديدها وبعد لحظات أكتشف أنها نقطة سوداء التصقت بزجاج المنظار المستدير ، خفق قلبه . هل بدا بصره يرصد ما هو غير موجود . إن دواراً يباغته على فترات متقطعة . لكنه لا يبالى . يضيع بعض الحشائش الجبلية الطيرية التي تفرز عصيراً غليظ القوام كالصمغ ، تدب في

---

---

عروفة حرارة ، تمتليء معدته بالعجينة الخضراء الثقيلة ، ربما احتاج وقتاً حتى يستعيد قدرتها على هضم الأرغفة ، والخضار المطبوخ ، واللحم ، والحلوي ..

في هذه الأمسية الآتية التي لا يدرك متى تجيء ، سيسأله سعيد مهران  
مداعياً :

والنساء .. وماذا عن النساء ؟

لن يدركه خجل ، لا لكنه سيقول إنه لم يفكر في امرأة معينة بالذات ،  
ولم يستعد حواراً جرى ذات يوم ، ولم توجعه ذكري أمسية ناعمة . عندما  
يتتحول كيان الإنسان كلّه إلى توقع وانتظار ، عندما يعيش الجسد حالة  
ترقب دائمة ، لا يدرك متى سيصطدم بالعدو؟ لا يدرك إلى أي حد  
سيقاوم البرد والمطر والجوع ، فلا مجال للروء الناعمة ، سيصمت  
قليلًا . يعرف أنهم يصدقونه ، كلهم قضوا فترات طويلة خلف الخطوط ،  
الحسين أمضى ثلاثة شهور بصحبة البراق يستطلع ما حوله شرم الشيخ ،  
سليمان الحلبي قاد دورية قتال هاجمت محطة رادار غرب رأس سدر ، ثم  
اختفوا شهراً حتى عادوا إلى الوحدة . لكنه سيكون صريحاً معهم .  
سيقول .. « هل تذكرون عندما خرجنا إلى القناطير الخيرية معاً ، تذكرون  
أنني تغييت عنكم وقتاً .. ». في هذا اليوم أثناء تقاده تحت شجيرة  
خضراء تلقى حولها ظلاً ، رصد فتاة نحيلة ، متوسطة الطول ، شعرها

---

ناعم كليل أحكم إطفاء كل ذرة ضوء فيه . وجهها محمد الملامح ، متعدة العينين ، جمالها برى ، صريح ، اتحدهما اقتحاما . لم يذر أين رآها ؟ أتشبه نجمة سينمائية أجنبية رآها في صباحه ؟ أتشبه خيالا حلم به ؟ لا يدرى لكنه وجد نفسه يقوم ، واتته جرأة للحظة الاقتحام التي تناهى فيها كل الاهتمامات والأفكار التي لا صلة لها باللحظة ، غير أن مشاعره ارتجفت وقتئذ عندما تتبعها ، طريقة مشيها أتعجبه . كأنها خطوط على أطراف أصابعها ، يدها تعثّت بعقد بسيط تدلّى حول عنقها الذي بدأ مساحة كبيرة منه ، زرار القميص الأعلى تركته مفتوحا بأهمل ، أحسّت أن هناك من يتبعها ، رمقتة بعينين سوداويتين كعيون الغجر ، وخيل إليه أن شفتيها المحددتين صرحتا لابتسامة بالظهور ، لم تفارقه لحظة الاقتحام . تحدثت إلى بعض صديقاتها ، وقف يرقبها من بعيد ، استنتج أنها جاءت إلى الحدائق في رحلة جماعية . الفتت ضاحكة ، غاصت داخله بعنف ، مشت بمفردها بعيدا عن رفيقاتها ، اقتفي خطواتها ، تحت شجيرة قريبة من النيل قعدت فجأة ، استندت بظهرها إلى جذع الشجرة ، واجه الجمال البري المتألق والحمراة التي تباع من ملامح الوجه كما يتباع الشفق من السماء البعيدة ، سألاها أهي من جامعة القاهرة ؟ قالت باليجاز كشفة أنها من الاسكندرية ، لا يدرى لماذا خفق قلبه عندما قالت ، الاسكندرية ، ربما لأنه يفكر في المدينة كهدف للراحة ، كثيرا ما فكر في الذهاب إليها مع

زملائه ليلة واحدة . يرى البحر المتبدلة ، البحر المختلف عن الخليج المحدود بشاطئين يقعان في نطاق النظر ، قالت إن اسمها « أروى » ، كأنه يخترق نطاق الدفاعات الأولى ، الجملة تل الجملة ، وتحيى لحظة قريبة يعيشان في بريق هاديء ، يمسك بيدها ، ترمي بعينيها الواسعتين ، فجأة قامت كالبلغة ، لوحٌ بيدها ، توقف ، لم يمض خلفها ، في اليوم الأول بدا ما حدث عبثاً صبيانياً لا يليق به . وفكّر أنه أخطأ ، ولن يقص ما حدث لانسان ، لكن في الأيام التالية فوجيء بطيفها يتغنى أثره . كلما استدعاها إلى ذهنه بدت ملامحها الصافية كسماء صالحة للطيران وأضحة ، يخفق قلبه ، يدركه حنين غامض إلى لقاء رهيف . وهمس ناعم . وأشواق متبدلة ، وانتظار حلو ، ولقاء حار ، ملامحها تمثل كل ما تعدد به الحياة الآمنة . في الجبل جاءت إليه من كل اتجاه ، في لحظة معينة إتكأت على كل الصخور الوعرة ، المجدبة ، القاحلة ، زرعتها بابتسامات لا تُحصى ، ورقة لا تبين ، وكاد يسمع صوتها يهمس ، أروى ، لو خططا خطوات لـ .. لو امتد الحديث ، تسأله عنها تفعله الآن ، ورأها تجلس في حجرة ، أو تمشي في طريق ، أو تتأمل البحر . عندما ألحت عليه في هذا القطاع الجنوبي خيل إليه أنه تجاوز حياته العادية بمراحل ، وأن ما جرى جرى ، وما يفکر فيه حدث في تاريخ مضى ولا يبعث إليه إلا الأسى .. حاول غض البصر عن ملامحها وكأنه يغلق أذنه عن نداء ناعم يستهدف تقافاته إلى

---

الخلف ، وهلاكه في الوديان ، في الليل المثقل بالنجوم بدا القمر رفقة يشف عما وراءه ، فوق حافة الجبل ، على شاشة السماء رصد ثلاثة حيوانات قدر أنها ذئاب ، تمشي في طابور ، لهذا إذن مصدر العواء الذي يخترق أحشاء الجبل ؟ . انتبه إلى همسات النجوم الخفية ، تأكد أن للنجوم لغة ، وعيونا ترقبها من خلالها ، رصد نقطا مضيئة تتحرك في السماء ، بعضها يظهر كل ليلة في ميعاد ثابت ، أقمار صناعية ، من ميعاد مرورها يمكنه تقدير الوقت بدون النظر إلى ساعته ، لا يحتاج إلى أي تنبية ليوقف ، يكفي أغماض عينيه وقرار منه بأن يصحو بعد نصف ساعة ، لا يتتجاوز الوقت الذي حددته لنومه بدقة واحدة منها هاجمه التعب وتزايدت وحده ، إذا صدر صوت لا يتمي إلى الجبل يفتح عينيه فورا . لو تغير أيقاع المطر ، لو تحول إلى سيل فورا ، بدا كأن هناك حواسا جديدة اكتسبها خلال هذه الأيام المتعاقبة ، المتواتلة في أصرار لا يوقفه الجبل حول تجعله ينحني فجأة وبعد لحظات تهدر طائرة هيلوكبتر ، يدرك اقتراها قبل أن يسمع أي مقدمات لدوران عركها أو مراوحها ، هكذا قرر فجأة الانتقال من المنطقة الجنوبية للجبل إلى القطاع الذي يتواجد فيه العدو .

سيسألونه . هل فوجيء بانسحاب العدو . سيقول إنه فوجيء إلى حد ما ، وبالنسبة لما أبدوه من استعدادات . وما أقاموه من منشآت قدر

---

فترة طويلة لبقائهم ، سيقول ان طائرات الميج اغارت ثلاث مرات على موقع العدو قبل انسحابه . وإن صوت اطلاق الفيكرز جسد له شجاعة الطيارين الذين هبتو حتى كادت بطون الطائرات تختك بالصخور ، طاردوا افراد العدو ، في البداية لاحظ انسحابهم من نقاط انشاؤها إلى مواقعهم الرئيسية ، ثم جاءت طائرات الميلو كبر ، نقلت بعضهم ، لم تعد بقوة بديلة ، رصد فرح الجنود واحدهم يرقص رافعا يديه . قابعهم بدقة ، ربما اخفوا بعض المعدات ، ربما عمدوا إلى تشوش ذخيرة أو سلاح في خبائء سرية احتياطاً لعودتهم ، ربما تركوا آلات دقيقة تختص بالحركات ، وتلتقط الصور ، بعد خلو الجبل منهم مشى حذرا ، المدقات ملغومة ، من يدرى ما يحفل به الجبل ؟ عاد يرقب مدينة السويس ، انتظر النداء ليعرف التعليمات التالية ، حتى يجيء قدر إلا يتحرك إلا وثباً كعادته ، ولا يعشى إلا حذرا ، ولا يتطلع إلى السماء إلا متخفيا ، استمر ينأى عن المدقات المعروفة بسهولة المشي فيها ، من يدرى ما يبطنه الجبل ، قبيل الغروب تقدم باتجاه الموقع المعادى ، تجنب وطء الموضع الرخوة ، مشى فوق الصخور الصلبة ، لم يعده حاجة إلى لف حذائه بفرو الحروف حتى لا يدع أثراً للقدميه ، لكن الحذر لم يفارقه ، تأمل الموقع الرئيسي الذي يخطو فوقه لأول مرة ، المكان الذي طالما مسحه بعينيه ، دار حوله ، هكذا رأى جنود العدو الأماكن التي كمن فيها ، تحرك خلاها ، أدرك إلى أى حد

كان معرضاً لأبصارهم ! ابتسם ، ألم ينجز مهمته ؟ لكن ما للنداة تأخر ؟ في ضوء الغروب راح يتأمل البقايا ، زجاجات مياه فارغة ملائقة بلاستيك ، علب بيرة مغلفة كتب عليها بالألمانية ، علب مربى ، علب سجق ، هكذا يبدو من الرسم الموضح ، تزايد انحناؤه ، حتى جلس القرفصاء ، دار بعينيه حول علب الطعام المحفوظ ، بقايا معجون أسنان ، هل يمتد يده ، يلتقط أحدي العلب ، يتذوق ما لم يقرب فمه منذ أيام طويلة ؟ أى جوع باعنته أمام علبة سردين مستطيلة ، أنه يحب السردين لكن أصابعه ظلت محبوكة بخصره ، ربما انفجر الملائكة كلها ، على مهل قام واقفا ، تلفت حوله ، هل يرقبه أحد ؟ علب ملقاه عمدا ، متاثرة في المكان كلها ، بعضها ليوهم العدو ريح الجبل وزملاءه بالمستوى المرتفع لنوعية طعامه ، بعضها شراك خداعية ، ترددت عيناه كثيرا ، اقدمت نظراته ثم احجمت ، طعام العدو ، تلفت حوله ، عاد يسلك الممر الضيق ، تأمل نزول الليل وفي اللحظات غزاه السكون الموحش ، سينام حذراً ، ولن يستسلم لبرد الجبل ، أصواته متاثرة تبعث من مدينة السويس ، وكلما تزايد الليل كلما اختفت ملامح البيوت وبدت الأصوات الباهنة وكأنها تسبح في بحر من العتمة ، في الصباح يتنابه نشاط ، يمضي إلى كافة القطاعات ، يقفز فوق الصخور ، يتوارى ، سيقول إنه خلال تلك الأيام واجه صعوبة في المشي بقامته مفرودة ، يبلغ أقصى سرعته إذ

---

يندفع منحنيا ، تكاد يداه أن تلامسا الأرض الصخرية ، تردد أمام بعض الكهوف العميقة لكن من يدرى لماذا يأن به الجبل ؟

سيقول إنه عندما رصد الجندي لم يصدق عينيه في البداية ، فوق أعلى الذرى ، حيث يبدو الوادي إلى اليمين كوعاء ضخم من الصخر والتتواءت ، وإلى الخلف ، بعيدا ، يمتد خليج السويس نائما تسبح فوقه سفن ، تبدو صغيرة ثابتة ، لا تتحرك ، لكنه لو عاود النظر بعد ساعة سيجدها اختفت ، في هذه النقطة بالذات رأه ، رصد ملابسه وملامحه وطريقة مشيه ، وظلله الذي تحرّك على الصخور الرمادية ملاصقا له ، خفق قلبه ، وثبت فرق الصخور ، قرر أن يواجهه من الأمام ، ربما لو صاح عليه من بعيد ينبطح الجندي ويصوب سلاحه إليه ، عندما يرى زميلا له يبدو أمامه فجأة سيدركه فرح إذ يلتقي بأحد رفقاء هنا في هذا الجبل ، سيحاول تخفيف المفاجأة إلى أقصى حد . بعد بريق اللقاء يتعرّفان ، سينبّلغا ما يود نقله إلى الوادي ، إلى سليمان الحلبي وبقية الأحباب والرجال . سيقدم كل ما يطلبه ، أي معاونة ممكنة . قفر من فوق صخر مديبة حادة إلى المدق مباشرة ، دار حولها ، أصبح في مواجهته ، لم يفاجأ عندما شهر الجندي مدفعة ، لكنه فوجيء باللامع ، يعرف الرجل ، لكن الذاكرة لم تسفعه فورا ، ابتسم بود ، بدا انفعاله واضحا ..

أنا ريح الجبل ..

---

---

تراجع الجندي إلى الخلف ، أدرك ريح الجبل أى مفاجأة مزعجة يمثلها بالنسبة لهذا المقاتل الذي يقوم بهمة ما في الجبل . رأى نفسه بعین الجندي ، وقفته على أطراف أصابع قدميه ، انحنائه . لحيته الكثيفة ، عيناه الغائرتان ، كما أنه لم يدر أى لون أصبحت بشرته بعد أكله الحشائش الجبلية طوال هذه المدة كلها ..

لا تؤاخذنى .. امضيت حتى الآن مائة يوم وبسبعة أيام ..

هز الجندي رأسه ، ما زال مباغتا .

يمكنني أن أقدم إليك كل مساعدة أقدر عليها .. اننى أعرف الجبل كما  
أعرف كفى ..

خطا تجاه الجندي ، فوجيء بزعة ..

قف مكانك .

فوجيء بالصريحة ، فوجيء باليقان الصوت الأدمعي في أذنيه . فوجيء  
بأنه يعرف الجندي ، ففز الاسم فجأة إلى ذهنه كتمهيد نيراني ..

أنت صابر .. الباشجاوיש .. من استطلاع الدفاع الجوى ..

هز الجندي رأسه ..

لا ..

---

اقرب خطوتين ، لا يهمه اطلاق النيران عليه ، صوته يخرج  
مضطربا ، أنه مفاجأً بارتفاع الصوت الأدمي ، لا يسأل بجفاء  
الباشجوش ، سيزول هذا حتى وبعد لحظات يتبدلان الود ، ويحكي كل  
منها عن حكاياته تماما كالمحندسين الجدد في تعارفهم الأول إلى بعضهم .  
يتراجع الباشجوش بقدر ما يتقدم من خطوات ..

إنني أعرفك .. جئت إلينا في المركز للتدريب على وسائل الاستطلاع  
البصرية ..

بدا الجندى متربدا ، توقف عن التراجع ، ها هي اللحظات المشوهة  
تدنو . لكنه فوجيء مرة أخرى بصياغ الرجل ..

ابق مكانك ..

توقف ربيع الجبل .

اعرف أن موقفك صحيح ، تصرفك سليم تماما .. لكن يجب أن  
تسمعنى .. أنا أنكلم لأول مرة منذ مائة يوم وسبعة .. حتى تطمئن .. الم  
تقض فى المركز أربعة أسابيع .

قال الباشجوش وهو يتراجع خطوة أخرى ..

صف لي المركز ..

سيقول إنه ولننظره بعيداً لمدة لحظات ، ثم بدأ يستعيد كل التفاصيل ، مدخل الباب ، كشك الحراسة ، المزلقان الخشبي ، مكتب قائد سرية الحراسة إلى اليمين ، وصف كل ما يمكن أن يراه المار من أمام المركز ، ثم ذكر اسم الضابط الذي أشرف على تدريب الجاويش ، سكت لحظة ، نظر إليه الباشجاويش ، يغوص بأسنانه في شفتيه ، هبت رياح باردة ، خفيفة لكنها حادة ، بحركة لا أرادية غاصت عنق ريح الجبل بين كتفيه ، هل يقف أمامه حقيقة رجل يعرفه ، وأين ؟ في دروب عناقة ، للحظة خيل إليه أن مارأه وهم . لكنه تحدث إليه ، يراه . لو مد يده سليمسه . لأول مرة يصفعي إلى صوت آدمي لا يأتيه عبر الراديو ، أو يصله مع هبات الرياح همساً من موقع العدو ..

.. غير صحيح .. أنا لا أعرف ما قلت .. ولا أعرفك ..

سيقول للحسين أنه لم يدر سبباً لأنكار الباشجاويش بعد كل ما ذكره . ربما أراد الاستزادة بذكر الأدلة . ظن أنه عبر حاجز الخدر إلى الباشجاويش تأكد أنه هو صابر بعينه .

اسم غير صحيح .. ليس اسمى صابر ..

توقف ريح الجبل مكانه ، لا يدرى لماذا شعر بخيئة فجأة ، ربما لادراته أن الحاجز لن يزول ، مهما فعل فلن يتحدث إليه الباشجاويش ،

ربما يلتزم التعليمات بعدم الكشف عن شخصيته خلال مهمته فوق الجبل ، ربما يخشي شيئاً ما ، لكن .. هل يدعه يفلت هكذا ؟ الإنسان الوحيد الذي إلتفى به ..

يجب أن تسمعني ..

يتراجع الباشجاويش .

لا أعرفك .. ابق مكانك ..

يزعق ريح الجبل .

باشجاويش صابر ..

يصبح الباشجاويش والمسافة تتزايد بينها ..

ليس اسمى صابر .. قف مكانك ..

يوشك أن يتعرّأ أثناء ابتعاده ، يزعق ريح الجبل ..

انتبه خلفك صخرة ..

يتوقف الباشجاويش شاكا ، يلتفت بسرعة ، على مهل يستدير ، يختفي عند المنحني ، يعلو ريح الجبل الصخور ، يتخلل الشقوق ، المدقّات الصغيرة ، يشرف على الوادي كله ، والخليج ، يلمح

---

---

الباشجاوיש ، مبتعدا هناك ، أدركه دوار ، وغصة زمت حلقة ، هل  
يدعه يضى هكذا ..

أنا ريح الجبل .. قل لهم انتي هنا .. انتظر النداء ..

التفت الباشجاوיש إلى أعلى .. بدأ كأنه قال شيئا ..

ماذا تقول ؟؟

لم يجبه ، استمر مبتعدا ، س يقول لسليمان الخلبي أن هذا اوجعه ،  
ما آلمه أكثر انه فتح الراديو في الميعاد ، تحدث مذيع ، تحدثت مذيعة ..

أصدقائي .. صديقان ..

يؤكد صوت ناعم أن ساعات كولانت العصرية أدق آلات ضبط  
الوقت ..

يسجل ضيف أحد البرامج ، يقول .. إنها لبادرة طيبة ..  
في محطة أخرى يصبح صوت غليظ المواطنين باليقظة والتزام  
المذر ..

دار بعينيه في الوادي ، اختفى الباشجاوיש ، عند العصر والسكن  
الموحش يهدده بغيره ، رأهم عند خط السماء ، حيث تلتقي شواهد  
الصخور المطلة على الوادي بالفراغ اللامائي ، قفز فوق صخور حادة

---

يصعب الشئ فوقها ، تأكيد أنه رآهم ، أربعة جنود وضابط . مروا أمام صخرة معلقة ، خيل إليه أن الباشجاويش بينهم ، يبحثون عنه ، قرر اختراق أقصر المدقات اليهم ، علت به الصخور ثم انخفضت ، عندما نظر إلى نفس الموضع لم يرهم ، جاءوا إليه ، أنهم على بعد خطوات منه ، سيدادلونه الحديث حتى لا ينسى الكلام ، ربما رأى فيهم أحدهم الشرقاوى ، الفتى مهران ، البراق ، لكن أين مضوا ، إلى أين ، الليل المقلب الذي لن تطلع شمسه أبداً ، تلتفت حوله ، حتى سيجيئون ، سيقدم منه سليمان الحلبي ، ضابطهم الشاب ، سيقول ..

«أدوا التحية لمن قضى فوق الجبل مائة يوم وازدادوا سبعة ..» .

سيقدمون إليه ماكينة حلاقة . ومعطفاً ، وصابونا ، لكنه سباب ،  
لابد أن يواجه كل زملائه ، سيري انطباعهم الأول ، سيجهد نفسه  
ألا يبكي ، إذا لم يعرفوه ، سيفقى في أنتظارهم ، ربما جاءوا إليه الآن ،  
لا يدرى متى سيجيئون ؟ ولا بأى أرض يموت ؟

«أدوا التحية لمن قضى فوق الجبل مائة عام وازدادوا سبعة ..» .

في الليل سيحاول تفسير لغة النجوم . ربما ضمنت همساتها نداء  
خفياً ، أنه يتلفت حوله ، السكون الموحش قادم ، حيث الخطي ،  
يقوم ، يجب على أربع فوق صخرة مدبية ، يقف عند أعلى نقطة فوق

---

---

---

الجبل ، يحيط فمه بيديه . يزعن من فص الحنجرة مناديا :

« يا حسين ..

يا سليمان يا حلبي ..

يا أدهم ..

يا براق ..

يا سيف بن ذي يزن .

يا صاعقة .

يا .. كل الأحباب ..

أنا ريح الجبل ..

أنا ريح الجبل .. هل تسمعني ؟؟

يونيو ١٩٧٦